الفصل الثانى

أسباب التدهور

١ — فساد الملوك واستبدادهم

١ — تنافس طلاب الملك وترفهم :

لم تقم الدولة الإسلامية على العصبية ، كما هى الحال فى دول العصور الغابرة ؛ بل إن صاحب الدعوة حورب من أهله وقبيلته ، ولم يؤمن بدعوته فى مكة إلا عدد قليل من الضعفاء الذين أخفوا إيمانهم حتى أعزهم الله بإيمان عمر بن الخطاب . ثم لاحت بشائر النصر بدخول كثير من أهل المدينة فى الإسلام ، طوعا لا كرهاً . كذلك لم تكن دولة المسلمين دولة استبداد وعسف ؛ فإن محمداً لم يكن إلا رسولا يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة ، ويجادل القوم بالتى هى أحسن . ومع مقام النبوة ومكانتها فى القلوب لم يكن أصحاب الرسول نفراً من العبيد المستضعفين المرائين ؛ بل كانوا أحراراً أقوياء أشداء فى الحق لا يكتمون رئيسهم رأيهم وشوراهم ، وكان الرسول يستمع إليهم ، ويأخذ برأيهم فى أمور دنياهم متى وجدها حقاً . وهكذا شهد العالم كيف حقق الإسلام أسمى نظم الحكم ، ونعنى به حكم الشورى ، ذلك الحكم الذى لم يتحقق فى أمم العالم إلا فى عصور متأخرة ، وبعد ثورات رهيبة مدمرة ، أريقت فيها دماء الأبرياء وغير الأبرياء .

ولم يكن قيام هذا النظام الجديد ممكناً إلا بعد القضاء على روح العصبية

التى طالما فرّقت بين القبائل ، وحالت دون قيام حكم سياسى مستقر .

وبالفعل حطم الإسلام هذه العصبية ، فأصبح الطريق ممهداً أمام نشأة أمبراطورية كبرى لم يشهد أحد قط أنها تنشأ فى أقاليم جرداء ، وبين ملك عريض للفرس فى الشرق ، وأمبراطورية عظمى للرومان فى الغرب ؛ ثم شهد بعد ذلك أنها تستطيع القضاء على هذين العملاقين فى حروب خاطفة . وإنما نجح الإسلام هذا النجاح الذى يشبه ما تدبجه أقلام أصحاب الأساطير لأنه محا النعرة الجاهلية ، وسخر من هؤلاء الذين يتفاخرون بالأنساب والألقاب ، وجعل الناس سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فأصبحت الإخوة الإسلامية تغنى عن رابطة العصب والجنس .

لقد جاء المسيح ينشر وينادى بالإخاء والمساواة ، ولكن محمداً هو الذى حقق ذلك بالفعل . ثم درج خلفاؤه الراشدون على سنته ، فاختير الخليفة الأول بالشورى ورفض الخليفة الثانى أن يعين خلفه على غرار ما فعله معه سلفه ؛ بل أحب أن يختار المسلمون أفضل أهل الحل والعقد من بينهم . ثم أطلت الفتنة برأسها ، فى ثوب العصبية التى تريد استرداد مكانتها . فمال الخليفة الثالث إلى بنى أمية ، فثار المسلمون لهذا الميل ، فقتل عثمان . لكن لم تجتمع الكلمة بعد حدوث هذا الصدع ، ونشبت الحروب الأهلية بين المسلمين ؛ فريق منهم يريد نصر الخليفة الرابع ، وفريق يطالب بدم ابن عفان ، ويتخذه ذريعة للاستئثار بالملك . وكتب النصر لهذا الفريق الأخير . فاسترد المسلمون هدوءهم إلى حين واستأنفوا الفتوح ، فسارت الجيوش ، حتى بلغت حدود البرانس وبحر الظلمات .

غير أن هذه القوة العارمة كانت تخفى وراءها جرثومة الانحلال . فقد

تقبّل المسلمون نظام الملكية الفردية، طوعا أو كرها، فأتجهوا قُدُماً نحو حكم المستبدين . ولم ينظروا بعين البغض إلى العصبية التى محاها دينهم ، وأحياها شقاقهم . فاحتد الصراع بين طوائفهم ، من يمنيين وقيسيين . ثم تطرق الوهن إلى أصحاب الملك نفسه ، فهب نفر من طلاب السلطان يدعون لآل البيت ؛ وحتى هؤلاء لم يكونوا على وفاق فيما بينهم . ثم انتهى الأمر بأن قفز بنو العباس إلى عرش الخلافة . حقا كان أمراء هذه الأسرة يسمون خلفاء المسلمين ، لكنهم كانوا فى الحقيقة ملوكا ، وملوكا مستبدين ، أكثر منهم خلفاء راشدين . وعجز هؤلاء الملوك بدورهم عن جمع الكلمة ، فخرجت من أيديهم بلاد الأندلس ، واستوى الملك فيها لبنى أمية ، ولم يكن هذا الانقسام خيراً لهؤلاء ولا هؤلاء ؛ بل مهّد لضعف المسلمين جميعاً ، ملوكا ورعايا . فانقسمت الأمة الكبرى إلى دويلات أكثر عدداً ، وأشد وهناً ، يسيطر على كل دويلة منها ملك مستبد يملك حق الحياة والموت فى رعيته ، ولم يعد لدى المسلمين عن حكم الشورى والإخاء والمساواة سوى صدى بعيد خافت ، لا يثير لديهم نخوة ، ولا يحفزهم إلى الرغبة فى العودة إلى ما كانوا عليه من عزة وبأس شديد .

وليت هؤلاء الملوك اتفقوا فيما بينهم على تقسيم الأمة الإسلامية ، على أن يكونوا يداً واحدة ، مع استبداد كل واحد منهم بإقليمه ! وليتهم أبقوا على الفكرة الإسلامية الكبرى ، وهى أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ! لكن جرى الأمر على غير ما كان ينبغى ؛ فملك الزهو عليهم أنفسهم . وظن كل واحد منهم أنه أحق بالملك من سواه . فبدأت الغارات من جانب وآخر . فإذا عجز أحدهم عن أن ينال من صاحبه ، أو أن يدفع عن نفسه

استعدى عليه الأجنبى . ذلك أن هؤلاء الأمراء كانوا يرون فى الملك والاستبداد مطمحاً دونه أى مطمح ، ويلمسون فى أنفسهم وفى ضمائرهم أن لقب الملك أو الأمير أعز عليهم من وحدة المسلمين وقوتهم . وتاريخ المسلمين حافل بأمثال هؤلاء الملوك الذين احتفظوا بلقب الإمارة على أسنة رماح الأجانب. ويستطيع كل مسلم أن يعثر فى تاريخ بلده على مثال أو أكثر من هذا القبيل . وهذا هو الذى قضى على ملك المسلمين فى الأندلس ، وقوّض سلطانهم فى الهند ، وألحق بهم الوهن فى جميع بقاع الأرض . فقد لهَا الملوك بشهواتهم عن أمر رعاياهم ، فخربت الديار ، وبطلت الصناعات واندثر العلم وساء الخلق . ومن قبل شكا أبو العلاء من ظلم الملوك وترفهم ، وضاق باستخذاء الأمة لهم :

مُلّ المقامُ فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فهمّ كل ملك أو أمير منهم أن يحيا حياة الدعة والترف ، وأن ينعم باللهو واللعب ، وأن يحيط نفسه بمظاهر العظمة التى يظنها فى كثرة الخدم والحشم، والقصور التى تتطامن أمامها قصور ملوك الأمم الظافرة المستعمرة . ويحسب الأمير أو الملك منهم أن عمله ينحصر فى استنزاف قوى شعبه وفى تسخيره واسترقاقه ، مع أن مجال العمل الذى يعود على أمته بالخير أوسع من أن تكفى حياته وحياة سلسلة من أحفاده فى القيام به . وكم سمعنا ورأينا من بذخ ملوك الشرق ، وخاصة ملوك المسلمين ، حينما تأخذهم لوثة التشبه بملوك الغرب ، فإذا دعوا أحداً من هؤلاء إلى زيارة بلادهم لم يدخروا

قليلا ولا كثيراً فى التظاهر بالأبهة والعظمة ، ولم يَدَعوا منفذا إلى الإنفاق والإسراف إلا هرعوا إليه . مع أن نظرة واحدة إلى بؤس رعيتهم وعريها تكفى فى اطلاع الأجنبى على حقيقة أمر هؤلاء الملوك وتفاهة شعورهم الذين تصرّف مقاديرهم وتستلب أرزاقهم ، وهم قانعون راضون بالذل والهوان . فالبذخ والإسراف غاية هؤلاء الملوك ، لكنهم أكثر الناس شحاً عند ما ينبغى لهم أن ينفقوا شيئاً يعود على أمتهم بالخير ، أو يكسبها شيئاً من احترام الآخرين . وهكذا حرص هؤلاء الملوك على الدنيا ، واختلفوا فيما بينهم ، وكان عليهم أن يتحدوا حتى ينهضوا بأمهم .

ومن قبل شهد الأفغانى بذخ إسماعيل، وإسراف ناصر الدين شاه، ولمس القطيعة بين الأتراك والأفغان ، فأخذه الغضب لموقف ملوك المسلمين الذين نسوا أوطانهم ، ولم ينسوا أنفسهم : « أما وعزة الحق وسر العدل ، لو تُرك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم ، وائتلفت آحادهم . ولكن وآسفاه تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية ، لا أمر فيها ولا نهى . . وما ردّ الأفكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض إلا أولئك المترفون، يحرصون على طيب فى المطعم ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ، ولا يراعون فى حرصهم على ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع، يقنعون منه بالاحتفال لهم بالمواسم والأعياد ، وهز الرؤوس وثنى الأعطاف تعظيما وتبجيلا ، ثم تذيل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . . . أولئك صاروا

فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب . »[١]

ب — جهل الملوك وغرورهم :

ومما ضاعف بلاء المسلمين أن ملوكهم ليسوا فى الأعم الأغلب على شىء من العلم الذى ربما هذّب الطبع ، وأوحى بفكرة الإصلاح ، ونأى بصاحبه عن الكبر والزهو ، وصرفه عن المباهاة بالعظمة وسط قوم من البؤساء الجياع. وإذا اجتمع الميل إلى الترف مع تأصل الجهل لم يكن لأحد أن يتوقع خيرا من ملوك يضلّون أنفسهم قبل كل شىء ، ثم يضلّون الناس من بعدهم . ولو أن ملكا من هؤلاء عنى بتربية خلفه ، ورغب فى تنشئته على الخير والعلم فلربما أحسن إليه أجمل الإحسان . لكن هذا مالا يتفق مع ما جرت عليه عادة ملوك المسلمين الذين لا يقرّبون عالما ، ولا يحفلون بنبوغ ، ولا تتسع صدورهم لسماع نصيحة من مفكر رشيد ، ولا يرتضون لأبنائهم أن يكونوا خيرا منهم ؛ إذ يحسبون أنهم أقدر الناس على تصريف أمور الملك ، وأن الدم الذى يجرى فى عروقهم ، وهو فى ظنهم دم من نوع آخر ، يغنيهم ويغنى ذريتهم عن العلم الذى قد يسمو ببعض أبناء الشعب مع كثرة الجهد والصبر ، ولكنه لا يعدل ما يمتاز به الملوك عن الدهماء من إصالة المجد ، ولطف العناية الإلهية التى أرادت لهم أن يكونوا ملوكا . لقد بنى لهم آباؤهم مجداً — عريضاً أو غير عريض — وليس بعزيز عليهم أن يحتفظوا به ، ولا سيما إذا كان محكوموهم جماعة من الأرقاء المتخاذلين الذين ورثوهم فيما ورثوا أيضاً .

(١) العروة الوثقى ١٥٢ — ١٥٥

ويؤدى الجهل والغرور كل إلى غايته ، وقد تتحد هذه الغاية فى أكثر الأحيان ؛ إذ تتراكم الأخطاء ، وتشح موارد المال ، وتضجر الرعية ، ويترقب العدو فرصة سانحة ، ويدب الطمع فى قلوب طلاب الملك . غير أن ما يقلقهم من بين هذا كله إنما هو المال الذى يريدونه لإشباع نزواتهم التى لا تعرف حداً . وليس تحصيل المال بالأمر العسير ، إذ يكفى أن تفرض الضرائب الجديدة ، أو تمنح الامتيازات لدولة أجنبية طامعة ، أو تباع أسهم شركة من الشركات ، أو تغتصب ضياع كبير من الكبراء . وماذا عليهم أن يفعلوا هذا أو أكثر منه ، طالما لا يجدون من يقف أمامهم ليقول لهم رفقا بالعباد .

وأكثر خطراً من هؤلاء الملوك الجهلاء ، الذين ينزلون الضر بأنفسهم كما ينزلونه بأوطانهم ، جماعة من الملوك الذين يضلون عن علم ، ولا يشغلهم أن يستقر الملك من بعدهم لأبنائهم ، وإنما يعنيهم أن ينعموا ما استطاعوا فى أثناء حياتهم ، وأن يلهوا بمقادير أمتهم والسخرية منها . وكثيراً ما يغرر هؤلاء برعاياهم ، ويحاولون القضاء على روح المقاومة عندهم ، فيتظاهرون ، أول الأمر ، بأنهم ملوك مصلحون ، لا يريدون شيئاً سوى العمل على رفعة الوطن والنهوض به ، والإسراع بإدخال النظم السياسية الحديثة التى تخفف من أعبائهم ، وتشرك الشعب معهم لكى يحكم نفسه بنفسه ، عن طريق اختيار من يمثلونه لتصريف شئون الدولة . وتنخدع الرعية بما يلقى فى روعها ، فتسلم قيادها ، وتختار ممثليها ثم تركن إلى الدعة ؛ بينما ينصرف صاحب الملك إلى حبك المؤامرات لتمزيق وحدتها ، وبث الضغينة بين أحزابها . وكثيراً ما ينجح فى خديعة رؤساء هذه الأحزاب ، ولو كانت معارضة لطغيانه ،

فيقربهم حيناً، ويبعدهم حيناً، ويلوّح لهم بالحكم، ثم يُدِل به عليهم، فيتطامن الأبيّ، وينساق مع غيره، لكى يترامى على أقدام المستبد يؤكد له ولاءه وطاعته، حتى ينال شيئاً من الغنائم بعد طول الحرمان.

فإذا استطاع الأمير أو الملك أن يحطم كبرياء المتكبرين من المستوزرين أخذ يضرب بعضهم ببعض، يوليهم ويعزلهم متى شاء، وتحزن الأمة وتفرح، وتشقى وتسعد، لذهاب مستوزر أو مجيء آخر، وهى لا تدرى أن وزراءها جميعاً قد نسوها، وأنهم ليسوا إلا قطعاً من الدمى التى تحركها يد يتظاهر صاحبها بالإصلاح، وبالتلهف على النهوض بالأمة والسير بها إلى مدارج العلا! ويقهقه هذا المستبد بين حاشيته طرباً لنجاح حيلته، مع أنه يسوق نفسه إلى الهاوية؛ فهو يظن أنه أكثر الناس ذكاء، وأطولهم باعاً، وأقدرهم على اللعب بمصير أمته، لكنه لا يفعل فى الحقيقة سوى أن يعجل بهدم ملكه ودنياه، ولا يدفعه إلى ذلك المصير الرهيب سوى الغرور، وهو داء عز أن يرجى له شفاء.

ومن مظاهر الجهل والغرور أن الأمير الشرقى يعبد الألقاب ويحرص عليها أكثر من حرصه على ملكه! وقد عرف المنافقون تقدير الملوك لهؤلاء الذين يخلعون عليهم صفات العظمة والشرف فافتنوا فى اختراع الألقاب لهم. وإذا أنت قرأت صحيفة من صحف البلاد الإسلامية واطلعت على الجمل الطويلة التى تفيض ملقاً، والتى تسبق صغائر الأمور التى يقوم بها الملوك، لملئت عجباً. ولو ترجمت هذه العبارات إلى لغة أجنبية لحار الناس فى فهمها؛ إذ ليس من عادتهم أن يروا مثل هذا البذخ فى جمع ألقاب الشرف والجلالة والعصمة

والمجد والنبل لوصف ملك ، أو شبه ملك، يعلم الناس جميعاً خيانته وسفه رأيه، وحمقه وخسته ، وبعده عن الشرف والنبل .

كذلك عرف المستعمرون غرور أمراء المسلمين ، فسلبوهم ملكهم ، وأبقوا لهم مظاهر الملك وألقابه فقرّبها هؤلاء عينا . ومن قبل عجب الأفغانى لسذاجة هؤلاء الملوك وجهلهم فقال : إنه « إذا سلب الأمير الشرقى ملكه وماله وجرّد من جميع حقوقه ، وبقى له لقبه ولواحق لقبه فهو فى سكرة من لذة ما بقى له ؛ وفى ذهول عما سلب منه . هذه خلة عرفها الانكليز فى كل أمير شرقى . فلمَ لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء ، بعد ما جردت من حقائقها ، وأى داع يدعو رجال الإنكليز لإزعاج قلوب الأمراء بنزع هذه الألقاب ؟ إن اللقب الضخم حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقى ، وجبّ عميق يلقى فيه ، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض . »

وقد سرت عدوى الغرور إلى الخاصة والعامة ؛ بل إلى نفر من العلماء الذين لا يحترمون علمهم ، أو يتجاهلون أن الحياء أهم صفات العالم . فأصبح القوم جميعاً يتنافسون فى الحصول على الألقاب ؛ وإن لم تمنح لهم منحوها هم لأنفسهم ؛ إذ يظنون أنهم يزدادون بها شرفاً ومكانة فى أعين الناس ، مع أنهم لا يخدعون أحداً ، ولا سيما إذا حمل اللقب العريض ذو الجهد أو الشرف الهزيل . لكن ما دام الشرف يمنح دون استحقاق ، وما دام المجد ينال عفواً ودون جهد ، فلا ضير إذن من أن تباع الألقاب وتشترى . فإن أعوز المال فلا أقل من أن يراق ماء الوجه ، وأن تدبج مدائح الملق والنفاق . فالطامح إلى اللقب إما غنى يستطيع أن يشتريه ، وإما رجل لا حياء له ، يقبل على الملوك يطريهم بما ليس فيهم أو بضد ما هم عليهم ،

فيصفهم بأنهم المصلحون العادلون المشفقون على رعاياهم ، مع أنه يعلم في قرارة نفسه ، كما يعلم الناس جميعاً ، أنه أول المنافقين .

حـ — خيانة الملوك :

لقد عاش الأفغاني في عصر تألبت فيه الدول الأوروبية على الأقطار الإسلامية ، وبدأت تعد العدة فيه لاقتسام الدولة العثمانية . ولم يكن جمال الدين بعيداً عن مجال الحوادث التي اهتز لها الشرق في ذلك الحين ؛ فإنه شهد في بلاده كيف اختلف الأمراء فيما بينهم ، وكيف نجح شير علي خان في اغتصاب الملك بعون الإنجليز . ثم اضطر إلى مغادرة البلاد الأفغانية إلى قطر إسلامي آخر كان الإنجليز يعدون العدة للاستيلاء عليه، وهو مصر . وهناك رأى رأى العين إسراف اسماعيل وبذخه وغروره . ثم اشترك في إثارة الرأي العام ، ضد هذا الملك الذي كان يقود بلاده إلى الهاوية . وكان له نصيب في خلعه وتولية توفيق باشا الذي تعاهد معه من قبل على الإصلاح السياسي والاجتماعي والوقوف في سبيل أطماع انجلترا وفرنسا . لكن توفيق خان العهد ، وغدر بصاحبه ونفاه من مصر . كذلك وجد الأفغاني في إيران نموذجا آخر من السفه والخيانة جمع بين صفات إسماعيل وتوفيق ، ونعني به ناصر الدين شاه ، الذي أغرق بلاده في الدين ، ثم أخذ يمنح الإمتيازات لكل من انجلترا ولروسيا . لولا أن أوقفه الأفغاني عند حده بإثارة رجال الدين عليه أولا ، ثم بالحض على قتله فيما بعد .[1]

فإذا تحدث الأفغاني عن سفه ملوك المسلمين وخيانتهم فإنه لا يعالج الأمر

---

(١) إرجع إلى كتابنا جمال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته .

من الوجهة النظرية ، وإنما يتحدث حديث الخبير المطلع الذى يرجع النتائج إلى أسبابها ، والذى يستنبط من التاريخ عظاته ودروسه . لقد وصف بعضهم جمال الدين بأنه ثائر لا يرضى سوى أن يهيج النفوس ويبعث الفتنة فى كل مكان حل به ؛ وهذا هو ما وصفه به الأجانب الذى لقوا من عدائه أكثر مما لقوه من أى رجل آخر . لكنه لم يكن إلا رجلا صادق الحدس بعيد النظر ، فطن إلى ما تبيته الدول الأوروبية للأقطار الإسلامية ، فقام يناهضها وحده فى عصر استسلم فيه المسلمون ، بل سارع فيه ملوكهم إلى تصفية ملكهم ، إما خوراً وإما سفها وخيانة ، كأنما قد ورثوا الأرض ومن عليها ، وكأنما كان لهم حق هبة رعاياهم وثروات بلادهم لأول طارق أو أول طامع .

إن هؤلاء الذين ينتحبون للمجد الزائل ، ويصبون لعناتهم على الدول الاستعمارية ويسبون الدهر الذى جعلهم أذلة ، ورماهم بهذه الدول الجشعة التى تنكل بهم هم أولى الناس أن يبدأوا بالخجل من أنفسهم ، ويصب لعناتهم عليها . وهم أجدرهم بألا يتوقعوا من عدوهم أن يعاملهم معاملة الكرام الذين كبا الدهر بهم ؛ ذلك أنهم كانوا جبناء رضخوا للملوك من الخزنة ، وتركوا أمرهم لجماعة من الوزراء الذين لا خلاق لهم ، فحق لهم إذن أن يصبحوا سلعة تباع أو توهب أو تمنح دون عوض . وليس على الدول الاستعمارية بعد ذلك من حرج ، ولها أن تغتصب ما تشاء ، وتذل وتعز من تشاء . فإن من سنة الحياة والعمران أن من يقبل الذل والظلم جدير بأن يكون ذليلا مدحوراً .

ولم يخف على الدول الأجنبية ما انحدرت إليه حال المسلمين من ذل رعاياهم ، وخيانة ملوكهم وجبنهم ، فلم تجد مشقة فى استعمار بلادهم بعد

أن كانت هـذه البلاد حصناً منيعاً تخرج منه الجيوش تلقى الرعب فى قلب العدو . وهكذا تبدل الأمر ، وأصبح من اليسير على أى دولة أجنبية، ولو من دول الدرجة الثالثة أو الرابعة فى القوة أن تغير على أى قطر إسلامى، وتدفع بجيوشها إليه، وهى آمنة ألا تضطر إلى القيام بحرب حقيقية تخشى نتائجها . ذلك أنها كانت على يقين من أن أمراء هذه الأقطار أو ملوكها ليسوا ممن يُخشى خطره ، أو يُحفل بأمره .

فالأمير المسلم أحـد رجلين : إما حاكم تدين له الرعية بالولاء والطاعة وتحف به القلوب محبة ، وإما حاكم مستبد خائن . فإذا كان الأمير على وفاق مع رعيته — وقلّ أن يوجد مثل هذا الأمير — لم تعدم الدولة الطامعة فى ملكه سبيلا إلى بعث الرعب فى قلبه ، أو فى أن تحيك له الشباك ، فتخدعه بالأمانى وتعلله بالآمال ، وترغبه فى الاستسلام ، فيرضخ لما تقضى به . فإذا وقع فى حبائلها كان من الهين أن تتبعه الأمة بأسرها . وهـذا هو الطريق الذى اختاره الإنجليز مع السلطان التيمورى فى الهند . فقد أوهموه أنهم لا يريدون به شراً ، وأنهم لا يبغون سوى تنمية علاقات الصداقة والتجارة مع بلاده ، وأنه يستطيع أن يطمئن إليهم فى استغلال هذه الموارد الهائلة التى عجز الهنود عن استغلالها . وما زال الإنجليز يتقدمون بخطاً بطيئة وأكيدة حتى وضعوا أيديهم على مختلف مرافق الدولة ، وتبع ذلك أن سقطت بلاد الهند فى حوزتهم. «ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيمورى وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية أحقاباً طويلة.»[1]

(١) العروة الوثقى ١٦٩ .

وقد أراد الإنجليز أن يكرروا الحيلة نفسها فى البلاد الأفغانية مع تعديل بعض تفاصيلها فأوقعوا بين الأمراء ، وتحالفوا مع أحدهم على أن يمنحهم بعض الإمتيازات الاقتصادية ، ونجحوا أول الأمر فى أن ينصبوا صاحبهم على العرش . لكن رجال الأفغان كانوا أصلب عوداً من جيرانهم ، وأكثر منهم حمية ، وقدرة على القتال، ففتكوا بالإنجليز فتكا ، واضطر هؤلاء أن يتركوا البلاد لأهلها .

أما إذا كان الأمير سفيهاً خائناً لا تربطه بشعبه رابطة مودة ومحبة فإن الاستيلاء على بلده لأكثر يسراً ؛ إذ ليس للغاصب أن يجند الجيوش الضخمة وأن يحشد الأساطيل . وفيم هذا العناء كله إذا كانت نتيجة الغزو محققة قبل البدء فيه ؟

لقد كانت فكرة فتح بلاد المسلمين منذ عدة قرون لا تراود الدول الأوروبية . لكنها بدأت تتحقق فى القرن الثانى عشر أيام الحروب الصليبية ، غير أن بقية من الأخلاق الإسلامية ألهبت حماس الملوك والأمراء فاستطاعوا أن يطردوا العدو من الأراضى المقدسة ، ثم بدأ الفتح الإسلامى يتجه نحو الغرب من جديد . أما ملوك المسلمين وأمراؤهم فى العصر الأخير فلم يكونوا على شىء من خصال أسلافهم الذين دوخوا الغرب ، وأخضعوه لسلطانهم، واستولوا على كثير من ممالكه حتى بلغت جيوشهم أسوار فينّا . ولا ريب فى أن التضاد بين هذين النوعين من الأمراء والملوك هو السبب فى هذا الفارق الكبير الذى نراه بين الدول الإسلامية فى عصرنا الراهن وبينها فى الزمن الماضى . فإن « الأمراء كما يكونون فى دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها . . . كذلك يكونون فى بعض أدوارها علة فاعلة

فى سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ أن يكون أمراؤنا والأعلون فينا آلة فى اضمحلالنا وفنائنا ، لما غلب عليهم من الترف والانهماك فى اللذائذ والانكباب على الشهوات ، مع سقوط الهمة ، وتغلب الجبن والحرص والطمع فى طباعهم . . . »[1]

ومما دفع الأمراء إلى الخيانة والتفريط فى أمانة الملك التى فى أعناقهم أنهم وثقوا بالأجانب ، وعهدوا إليهم بكثير من أعمال الدولة ومناصبها من وزارة أو سفارة ؛ بل اتخذوا منهم حاشية وبطانة ، وفضلوهم على النابهين من رعاياهم . ثم غلوا فى الثقة بهم ، حتى أفسحوا لهم مكانا فى قصورهم ، وندبوهم لخدمتهم الخاصة ، ظنا منهم أن ذلك يتيح لهم أن ينافسوا الملوك الآخرين فى الجرى على أساليب الحياة الأوروبية ، وفى أتباع تقاليد الملوك من الأجانب ؛ وذلك أمر يعلو فى تقديرهم على كل أمر ، وهو مما لا خبرة لبنى ملتهم به . وغاب عن هؤلاء الأمراء والملوك المفتونين بقشور الحضارة الغربية وزخرفها أن العظمة والمجد لا يكونان بكثرة الخدم والحشم ، وإنما بالجد والسعى للنهوض بأممهم المتأخرة ، وغفلوا عن أن الأجانب الذين يصطفونهم لا ينسون أوطانهم ولا يعنيهم ، فى كثير أو قليل ، أن يخلصوا لمن اصطنعهم ، ولا يشغلهم همّ سوى أن يقفزوا إلى أرفع المراتب سعياً وراء المال والجاه والنفوذ ، ولا يكترثون إن أحسنوا أو أساؤا فى النصيحة ؛ إذ ما الذى يربطهم بمصير هذا البلد وأهله ، وهم على غير ملته وعقيدته ؟ إنهم لو استطاعوا إلحاق الضرر بولى نعمتهم ، وهو آمنون على أنفسهم ، لرأوا من الحق والسفه ألا يفعلوا

---

(١) العروة الوثقى ص ١٧١ — ١٧٢ .

كل ذلك والملوك فى غفلة عن هذا السوس الذى ينخر فى عروشهم ويهدم فى ملكهم ، ولا ينى يوسع الثغرة التى تترقبها دولة طامعة للتدخل فى شئون بلادهم أو لوضع يدها عليها . ويعلم المرء ممّ تتألف حاشية كثير من ملوك المسلمين ، وكيف أن هؤلاء الأجانب يصرفون أمور الدولة ، يقيمون الوزارات ويسقطونها ، ويعملون لحساب بعض الدولة الأجنبية لقاء أجر معلوم . فهم قوم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذ كرّموا طغوا ، وإذا قوبلوا بالإحسان أجابوا بالإساءة . ثم إذا انهار العرش الذى كانوا يزعمون أنهم من المخلصين له أسرعوا بالفرار كالجرذان يحاولون تبرئة أنفسهم من طيش الملوك ونزقهم ، ويتطوعون إلى التشهير بسلوكهم ، ويبدون حسرتهم على عناد الملوك الذين يركبون رؤسهم ، ولا يستمعون إلى ما بذلوا لهم من نصح صادق ! !

ى — أعوان المستبد :

وليس وزراء المستبد أقل خطراً من حاشيته الأجنبية ؛ فإن التاريخ يشهد بأن الأمير المستبد لا يصطنع من الوزراء سوى الأذلاء اللئام ممن يكونون أطوع له من بنانه ، وممن يحسنون الملق والنفاق ، ويجيدون استنزاف أموال الرعية ، ويلهونها عن المطالبة بحقوقها ، ويفتون فى عضدها ، حتى تظل خامدة راكدة . غير أن هؤلاء الأعوان يأبون إلا أن يتشبهوا بسيدهم ، فيتخذون رجالهم ممن هم على شاكلتهم لؤما وذلة . ذلك أن الوزير الأكبر الذى يعرف كيف يحنى هامته ، وكيف يقبّل يد الأمير التى قد تصفعه ، يهمه أن يجد من ينحنى له ، ويقدم فروض الطاعة بين يديه ، ويتقبل سخطه بالرضا ، وعسفه

بالخنوع ، كذلك يحلو له أن يبدو فى نظر العامة فى مظهر المستبد الذى يقبض على مقاديرها بيد لا تعرف شفقة ولا رحمة . فهو اللئيم الأعظم من بين قومه، ثم يأتى من بعده الوزراء ممن هم دونه لؤما .

ويتدرج اللؤم والاستبداد فى المناصب، وتستبد كل طبقة بالتى هى أدنى منها ، حتى ينتهى الأمر إلى أدنى الطبقات ، دون أن ينمحى اللؤم أبداً . وكل طبقة من هذه تدين بالطاعة لأكثر أفرادها لؤماً ؛ إذ من عادة الأسافل ألا يشغلوا أنفسهم بالسعى وراء محبة الناس ، إنما الذى يهمهم هو أن يكتسبوا ثقة من يستبد منهم ، ممن هو أسمى منهم مرتبة فى الخسة والدناءة . وكيف نتصور أن ينمحى اللؤم جملة إذا كان أصغر موظف فى الدولة يحرص على الاحتفاظ بشىء من الميل إلى الاستبداد بحاجات الناس ، لكى يبرهن لهم ، فى كل لحظة ، أنهم أمام ممثل المستبد الأكبر ؟ فدولة الاستبداد هى دولة الأوغاد ،على حد تعبير الكواكبى . وتكفى المقارنة بين مسلك رجل الشرطة فى هذه الدولة ومسلك قرينه فى دولة حرة لمعرفة إلى أى مدى يشوه الاستبداد النفوس، وإلى أى حد ينعكس لؤم الوزراء واستبدادهم فى طباع أدنى مرؤسيهم. فكلٌّ فى هذه الأمة مستبدٌ ومستبَدٌّ به ، وكل ذليلٌ وطاغية : ذليل لمن يرأسه، وطاغية على من هو دونه . وقد يعجب الإنسان لماذا لا يترك الناس أنفسهم على طبيعتها فى هذا المجتمع ، ولماذا لا يتجهون إلى الحق والخير بفطرتهم الأولى ، دون أن يضطربوا بين الذل والقهر ، والضعة والكبر ، والتظاهر بالرغبة فى الإصلاح مع الأصرار على الاحتفاظ بالأوضاع القديمة ، مع ما فيها من جور وعسف . لكن ليس هناك فى الحق ما يدعو إلى هذا العجب ؛ فإن النفاق هو القانون الأكبر فى دولة الاستبداد .

وكثيرا ما يزعم وزراء المستبد أنهم من أبناء الشعب ، وأنهم لا يهدفون إلا إلى الإصلاح والنهوض بالأمة العاثرة ، وأنهم يبذلون قدر طاقتهم لحمايتها من الطغيان . غير أنه ينبغي للمرء ألا يُخدع بهؤلاء الوزراء الذين ينافقون ، ويقولون مالا يفعلون ؛ فقد بيتوا أمرهم سرا مع سيدهم على أن يعللوا الناس بالآمال والأمانى ، وأن يخدعوهم بالحديث المستمر عن الحرية وحقوق الشعب ، حتى يصرفوهم عما يدور فى الخفاء من اتفاق على تقسيم الغنائم والأسلاب ، وتوزيع الثورة بين نفر معدود من حاشية المستبد وأهله وأعوانه وزبانيته . والحق أن هؤلاء الوزراء أكثر فطنة من أن يصدقوا الوعد ، أو يؤدوا الأمانة ؛ فإنهم يعلمون أن الخير كل الخير لهم فى البقاء إلى جانب المستبد . وقلّ أن يسقط الستار ليكشف عما يدور فى الخفاء بين الملك المستبد ووزرائه ! وإذن فكيف للشعب الجاهل أن يفيق من غفلته ؟ وكيف له أن ينقطع عن الهتاف بحياة فريق من المستوزرين الذين يجيدون النفاق ، ويستغلونه باسم الوطنية والحرية والتظاهر بالوقوف أمام الطغاة أو العدو ؟

وقد لا نعدم أن نجد ، فى بعض الأقطار الإسلامية التى تتبع فى حكمها ما يظن أنه الحكم النيابى الغربى ، حزبا قويا من الأغنياء الذين يمثلون الشعب الفقير ، وينادون بأنهم لسان الأمة المعبر عن إرادتها ، مع ما فى هذا من التناقض الذى يفجأ النظر ، والذى لا نجد له مثيلا فى أمة متحضرة ؛ إذ لم نر فى بلد من البلاد جماعة الأغنياء ينادون بإنصاف الفقراء . إن ذلك أمر ليس فى طبيعة الإنسان ! ولكن هذا ما قد يحدث فى الشرق ، وهو موطن السحر والمتناقضات ! فإذا اتفق أن طالب فريق ممن لم يفسد الاستبداد طبعه بنشر التعليم ثارت ثائرة هؤلاء الأوصياء على الشعب ، وفزعوا أن يفقدوا أعز حليف من حلفائهم وهو جهل الأمة ، فلا يفتأون

يضعون العراقيل، لأنهم لا يخشون عدواً أشد خطراً من العلم الذى يزيح الغشاوة عن العيون ، ويهتك ستار المنافقين الذين يحرصون على أن يظل الشعب فى جهله حرصهم على أن تبقى الثروة فى أيديهم . وإذا ثارت نفس امرىء للظلم الاجتماعى فى مثل هذه الأمة ، فأخذ ينادى بضرورة توزيع الثروة توزيعاً عادلا ، وسن القوانين التى تضع حداً لما يمتلكه الأغنياء من الأراضى الزراعية التى لا حياة لأغلبية الشعوب دون ملكيتها ، رأيت هؤلاء الأغنياء الذين يمثلون الطبقة العاملة الفقيرة أشد إصراراً على إبقاء القديم على قدمه ؛ إذ أن كل تعديل أو تغيير فى طريقة توزيع الأراضى سوف يقود البلاد حتما إلى الخراب والدمار ، وهم أحرص الناس على رخائها !

وربما وجد هؤلاء الوزراء فى مثل هذه الأزمات عوناً من بعض رجال الدين ؛ بل كثيراً ما يجدون هذا العون دون أن يلتمسوه . وعندئذ ينبرى نفر من رجال الكهنوت يرغبون الناس فى الفقر ، ويذمون لهم الطموح والرغبة فى النهوض مما انحدروا إليه ، فيقولون لهم إنما الدنيا متاع الغرور ، وإن المؤمن مصاب ، وإن ما يجدونه من سوء حالهم ليس إلا بقضاء من الله ، ولا مرد لهذا القضاء إلا بالصبر والرضا . فإذا لمسوا أن تحسين الفقر وذم الغنى لا يخدع أحداً ، وأن الميل إلى الثروة والتمرد يضطرم فى نفوسهم جعلوا يحذرونهم مما هم مقبلون عليه ، وينصحونهم بألا يخالفوا أوامر هؤلاء الذين تجب طاعتهم، ولو كانوا طغاة مستبدين[1] ثم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويستشهدون لما يقولون ، ساء فعلهم ، بآيات من القرآن كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » كأن

(١) ألم يكن رجال الدين فى تركيا يقولون فى أيام السلطان عبد الحميد : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم ؟

طاعة الله فى معصية أمر يوجبه الدين . ويلقى رؤساء الكهنوت جزاء ما صنعوا ، فيقربهم الوزراء ، ويفسحون لهم فى الرزق ، ويطلبون لهم الكسوة ، ويزيدون فى رواتبهم ويكثرون لهم من مجاملاتهم ولفتاتهم . فإذا تعددت الأحزاب فى قطرهم تفتحت لهم آفاق الرجاء ؛ إذ يسرع كبارهم كل يلوذ بفريق أو حزب يعقد أمله عليه ، ولا يدخر جهداً فى عونه بنفوذه وسلطانه على نفوس الدهماء . وقد يفطن بعض هؤلاء المقامرين أنه قد أساء اختيار فريقه ، وعندئذ لا يتردد فى البحث عن الفريق الرابح الذى يعتقد أن الفوز معقود بنواصيه ، وأنه أقرب إلى منصب الحكم من غيره .

فهناك إذن نوع من التحالف بين الوزراء ورؤساء الكهنوت ، ولهذا التحالف ثمنه ، والشعب المخدوع هو الخاسر فى كل حال . أما الثمن فهو تلك القوانين التى توضع وتسن لمصلحة الأغنياء ولنزع ما قد يبقى من قوت فى أيدى العامة . ولذا فليس بغريب أن اتجهت البلاد الإسلامية ، وبخاصة فى العصور الأخيرة ، نحو نظام عتيق شهدته أوروبا فى عصور تدهورها ، ونعنى به نظام الإقطاع . فإن المستبد يبدأ عادة بجمع ما فى أيدى رعيته من أراض زراعية ، بحجة أنهم لا يحسنون القيام عليها ، ويستخدمهم عمالا بأجر لا يقيم لهم أوداً . فإذا أخلص له أحد من خدمه أو من وزرائه أقطعه الأراضى الواسعة . ومنحه عبيدها فى الوقت نفسه . فطريق الإثراء فى الشرق ليس هو العمل أو الجد أو الذكاء ؛ وإنما هو التملق والحظوة لدى الملوك . وهذه هى أهم وسائل الإثراء . ثم يأتى بعدها الاتجار بالدين . ومن الطبيعى أن تنحصر الثروة القومية كلها فى عدد قليل من العائلات التى تدور فى فلك الأمير المستبد . وربما كانت أكثر العائلات ثروة

أطولها باعاً فى الخيانة ، أو فى البطش بالشعب . وعندئذ لا تجد هذه القلة من العائلات أو البيوتات حرجا فى أن تصف نفسها بأنها صاحبة المصالح الحقيقية فى البلاد . غير أنها لا تستحى بعد ذلك من أن تتقدم إلى الفقراء الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً تطلب إليهم أن يختاروها ممثلة لمصالحهم فى المجالس النيابية ، وهى لا تطلب إليهم ذلك بالرفق والحسنى ، وإنما بالسياط ، أو بالرشوة ، إن لم يكن هناك مجال لاستخدام السياط .

وإذا ثبتت قدم الخيانة والاستبداد بهذه الطريقة أو بغيرها زادت ثروة الأغنياء ، وعظمت مصالحهم التى يدافعون عنها ، وهبط مستوى الحياة لبقية الشعب ، واستشرى الفساد . وكلما زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء عظم خوف الناس من أولياء الأمر فيهم . وهم يخافونهم خوف دناءة ونذالة . وربما فسدت طباعهم إلى حد أنهم يتفانون فى خدمة ونصرة فريق من الحكام الذين يستبدون بأمرهم . وقد يسخر هؤلاء فى أعماق أنفسهم من مثل هؤلاء الأنصار المستعبدين الذين تبح أصواتهم بالهتاف بهم .

٢ — تحالف الملوك مع رجال الدين

١ — اتحاد الهدف :

وربما فاق الملوك وزراءهم فى التماس العون من رجال الدين . ومن النادر أن يرفض هؤلاء عونهم ، اللهم إلا فى بعض حالات شاذة ؛ ونعنى بها تلك التى يبقى فيها لدى علماء المسلمين نصيب من الأخلاق التى غرسها الدين فى ضمائرهم ، ومن الغلو أن ننكر وجود هذا النوع من العلماء الذين يقفون فى وجه

الاستبداد والظلم، ويشترون آخرتهم بدنياهم. لكن هؤلاء قلة، وهم قد لا يوجدون فى كل عصر أو عند الحاجة إليهم ؛ وإنما يشهد التاريخ ، فى أكثر حوادثه ونوازله ، أن الملكية الاستبدادية كانت على وفاق دائما مع رجال الدين أو أكثرهم فى أغلب العصور . ذلك أن رجال الدين محافظون بطبيعتهم . وقد يغلون فى هذه المحافظة إلى حد الجمود والإصرار على الدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه ، من الأساطير والبدع التى لا يقبلها العقل ولا الدين . ولهذا يرون فى كل فكرة جديدة بدعة توشك أن تفسد العقائد ، أو تهدم صرح الدين ، أو تأتى على سلطانهم ونفوذهم . مع أن الأفكار الجديدة تهدف أكثر ما تهدف إلى تحرير العقول من الأوهام والخرافات التى تراكمت على العقائد حتى حجبتها ، واحتلت مكانها فى النفوس .

ذلك أن الحياة الاجتماعية فى تطور مستمر . ومن الطبيعى أن يتردد صدى هذا التطور فى الأمور الدينية لميل الناس إلى الانحدار من التوحيد إلى الشرك ، ومن البساطة إلى التعقيد . فتبتكر الطقوس والتقاليد لإشباع هذا الميل الاجتماعى ، وتكثر النوافل حتى تُنسى الفرائض . ويتسلل هذا التبديل هيّنا لا يفزع أحداً من رجال الدين ، ثم يكسبه مرور الزمن جلالا وقدسية دونهما جلال العقائد الأولى وقدسيتها . ثم تندمج آثار هذا التطور فى العقائد والطقوس الدينية ، فيصبح مجرد التفكير فى العودة إلى الأصول الأولى نوعا من المروق والخروج على الدين . وكم من بدع حدثت فى الإسلام ، ثم ارتضاها رجال الدين ، وجعلوا أنفسهم حفظة عليها ، بحيث لو جاء أحد ينادى بترك بدعة من هذه البدع لنظر إليه القوم شذرا ، وقالوا إنه جاء يفسد عليهم دينهم !

فإبقاء القديم على قدمه ، ولو كان باطلا ، هو شعار هؤلاء الذين

ينصبون أنفسهم حماة للتقاليد ، ويفرضون على الآخرين آراءهم التى قد تبتعد قليلا أو كثيرا عن روح الدين . إنهم قلة ممن يظنون بأنفسهم أنهم قادة الفكر وحملة العلم ، وممن يرون ضرورة فرض أنفسهم على الناس، أرادوا أم لم يريدوا . فالاستبداد بالأرواح هدفهم ، والحجر على العقول غايتهم؛ يظنون أن العلوم الدينية والكونية قد ألقت إليهم مقاليدها .فلامطمح لباحث يحاول التجديد ، ولا سبيل إلى معرفة غير تلك التى يقررونها ، والتى يفخرون فى الوقت نفسه بأنهم ليسوا بأصحابها ؛ بل جاءتهم بالرواية عن هؤلاء العلماء السابقين المحققين المدققين الذين لم يتركوا لمن جاء بعدهم شيئاً يجتهدون فيه! فليس للعامة ـ ويعنون بها كل من ليس من طبقتهم ـ إلا أن تلتزم السمع والطاعة ،وليس لها أن تبحث عن الحق بنفسها ؛ بل ليس لها أن تتصل بربها إلا عن طريق الأوصياء من رجال الكهنوت أو أرباب الطرق الصوفية . وليس لأحد من العامة أن يعالج أمراً من أمور دنياه ، كعلاج مريض ، أو اختيار حرفة لابنه إلا إذا أجاز الشيخ رأيه .

وهذا نوع من الاستبداد شبيه بما عرفه أهل أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى وما تلاها من القرون . فقد كان الباباوات الحكام الحقيقيين فيها . وما كان لملك من ملوكها أن يجرؤ على عصيانهم ، وسلاح الطرد من حظيرة الكنيسة مرهف على عنقه وأعناق رعاياه . وما زلنا نسمع فى عصرنا الحاضر أن الكنيسة الكاثوليكية تستخدم هذا السلاح ضد رؤساء الدول التى لم يتحرر أهلها بعد من سلطان رجال الكهنوت .

ونحن لا نزعم أن لرجال الكهنوت فى الإسلام ما لقرنائهم فى المسيحية من السطو والبطش ، ولا ندعى أنهم بلغوا،أوسيبلغون، مبلغهم فى الاستبداد

بالأرواح. ومع هذا نعترف أنهم لو استطاعوا أن يكونوا مثلهم لفعلوا ، ولو أنهم وجدوا فى الدين الإسلامى منفذاً كسم الخياط يلجون منه إلى تكفير الناس وطردهم من الدين لما قصروا فى اللحاق بإخوانهم من كهنة الملل الأخرى . لكنهم يفعلون مايستطيعون ، أى يستبدون على قدر طاقتهم، وهم يستطيعون شيئاً كثيراً كلما خيمت سحب الجهل على أمة من الأمم الإسلامية ؛ إذ نراهم يخرجون من صمتهم وعزلتهم يسعون إلى المستبد أو يسعى هو إليهم ؛ لأن التعاون بين الفريقين كفيل بالسيطرة الشاملة على الأرواح والأجساد . وقد لا ندرى أى الفريقين أكثر حاجة إلى عون صاحبه ، غير أننا نعلم أنه لا بقاء لأحدهما دون الآخر .

وربما كان استبداد رجال الكهنوت أشد خطراً وأعمق أثراً ؛ لأن الآراء والمعتقدات الدينية أشد تحريكا للنفوس أو أكثر فتكا بحيويتها . كذلك نعلم أن رجال الدين يجدون فى هذا التحالف خيراً عميما ورزقا واسعاً ؛ فإن الحاكم يعترف لهم بأنهم قوامون على الدين وحفظة تقاليده ، مع علمه وعلمهم أيضاً ، أن هذا الدين براء منهم ؛ لأنه لا يعترف بمثل مكانتهم لنفر من الجبناء الذين ينصرون الظلم ، ويناقضون الملوك ، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يشبهون فى شىء أهل الحل والعقد من أفاضل المسلمين وأئمتهم فى أيام العزة الإسلامية الحقيقية . لكن ماذا عليهم لو خدعوا أنفسهم ، وخدعوا العامة معهم ، وادعوا مكانة ليست لهم ؟ أليست تلك هى السبيل إلى الاتجار بالدين ، والتظاهر بالتقوى والتقشف والزهد ؟ أوليس ذلك هو الطريق إلى نصب حبائل التصوف والشعوذة للسطو على ما فى أيدى الجهلة والسذج باسم النذور والأوقاف لأضرحة

الأولياء ، ولملء البطون والجيوب تحت ستار العمل لرفع شأن الدين .
ومن قبل فضح أبو العلاء أمثال هؤلاء الأدعياء فقال :

ويعجبنى دأبُ الذين ترهّبوا سوى أكلِهم كدَّ النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعماً فى حياته سعاةُ حلالٍ بين غاد ورائح
فما حَبَس النفسَ المسيحُ تعبداً ولكن مشى فى الأرض مشية سائح

أما الملوك فهم فى حاجة إلى من يبرر استبدادهم وبطشهم ، وإلى من يدخل فى أذهان العامة أن لها ملوكا يكادون يشاركون الله سبحانه فى صفاته وأفعاله : فهم لا يُسألون عما يفعلون ، ولا يخضعون لقانون ، ولا توصف أعمالهم بأنها عدل أو جور ؛ بل هى العدل كله ولو كانت ظلماً مبيناً ، ولهم حق الحياة والموت فى رعاياهم ، وهم أولياء النعم ، مع أنهم لا يفتأون يأكلون أموال الناس بالباطل ، وهم أصحاب الجلالة والإكرام . . . وغير ذلك من الأوصاف التى لا يوصف بها إلا الله وحده . وليس هناك قط من يفضل رجال الكهنوت فى خلع هذه الصفات على ملوكهم . وهل من المعقول أن يجد هؤلاء حليفاً لهم أفضل من هؤلاء الذين يدفعونهم إلى الاستبداد بالناس باسم الدين ؟

يدعون فى جَمعاتهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبكى المنبر

وقد أدى التحالف بين الملوك ورجال الدين ، فى بعض البلاد الإسلامية ، إلى نتائج عجيبة ، وربما كان أكثرها غرابة أن ظهرت ارستقراطية من نوع جديد ، ونعنى بها ارستقراطية رجال الكهنوت التى يغدق عليها المستبد العطايا ويخلع عليها الألقاب العلمية ، ويرفع من رواتبها ، ويطلق يدها فى أوقاف

المسلمين لتديرها كيفما تشاء ، أوتستعين بها على تنمية ثروتها الخاصة ، وعلى اصطناع الأتباع الذين قد تختلف رواتبهم ودرجاتهم ؛ لكن لا تختلف غايتهم من الركون إلى البطالة ، والاستعانة بالدروشة والشعوذة فى السيطرة على قلوب العامة وأرزاقها . غير أن طبيعة الدين الإسلامى ما كانت لتتفق مع ازدهار هذه الارستقراطية المزعومة التى تنسب نفسها ظلما إلى دين جاء يمحق الاستبداد أيا كان نوعه ، ويزيل الوسائط أو العوائق بين العبد وربه . هذا إلى أن بقية من الأخلاق الإسلامية كانت تدفع بعض المجتهدين ، بين عصر وآخر ، إلى كشف الستار عن أباطيل وأوهام هؤلاء الأدعياء الذين لا يمتد سلطانهم ، ولايعم شرهم ، إلا فى عصور الاستبداد والتدهور العقلى .

ب — اتحاد الوسائل :

كذلك يتحد الملوك ورجال الكهنوت فى الاستعانة بالوسائل التى تكفل لهم استمرار السيطرة على الأرواح والأجساد . وأهم هذه الوسائل محاربة العلم الجدير بهذا الاسم ، وهو العلم الذى يحرر العبيد ، ويدفعهم إلى المطالبة بحقوقهم السياسية والاجتماعية التى نالتها الشعوب المتحضرة والمتحررة . وأما العلم الذى يحتكره رجال الدين ، ويظنون أنهم حفظته والقوامون عليه ، فإنه علم قد مسخوه ، وأخرجوه عن أصوله ، حتى كادت تختفى معالمه ، وكاد ينكره بعض أهله :

أَجهل بساداتهم وإن زعموا ... أنهمُ فى علومهم رسخوا
قد نُسِخَ الشرع فى عصورهمُ ... فلَيتَهم مثل شرعهم نسخوا (١)

(١) من لزوميات أبى العلاء .

إنهم يجردون العلوم الدينية من روحها ، ثم يجعلونها مطية للاستبداد ، ووسيلة إلى الحجر على العقول ، مع أن الحرية هى روح الدين الذى ينسبون أنفسهم إليه . إنهم يريدون علماً يشغل الإنسان عن حاضره ، ويصرفه عن التفكير فى سوء ما انتهى إليه ، ويعزيه عن حاله الحاضرة الخاسرة بحياة مستقبلة تعوضه خيراً عما ليس لأحد قدرة على احتماله فى هذه الحياة . وهم يريدون علماً يلهى الناس عن ملوكهم، أو يدعوهم إلى الرضا بظلمهم، وإلى اعتقاد أن ما ينزل بهم من الأهوال والنوائب إنما هو خير لهم، لأنه بقضاء الله وقدره :

كذب يقال على المنابر دائما أفلا يميد لما يقال المنبر ؟

وهم يريدون، فى جملة القول، أن يضحى الآخرون بدنياهم من أجل آخرتهم، لكنهم يحرصون على ألا يعملوا بالنصح الذى يسدونه إلى غيرهم، ويفضلون أن ينعموا بهذه الحياة أولا ، وعلى حساب الآخرين بصفة خاصة .

إنهم يخشون أن تفلت الفريسة من أيديهم ، ويسوؤهم ألا تظل العامة على جهلها وهوانها . فإن فى هذا الجهل والهوان ضمانا أكيداً باستمرار نعيمهم وبقاء تحالفهم مع ذوى الأمر . إذن فكل وسيلة فى محاربة العلم الحقيقى مشروعة بحجة الدفاع عن النفس . ولا يعدم الحليفان أن يجدا من الوسائل ما يقف زحف المعرفة ، التى تزعم أنها جاءت تحرر الأسرى وتفك الأغلال ! فمن الممكن أن تسن القوانين التى تحول دون ظهور طبقة متوسطة تتجه إلى تعليم أبنائها علما يكفل لهم حياة أفضل من حياة آبائهم ، ومن الممكن أن تُوصَد أبواب الرزق أمام العلماء الحقيقيين الذين ينادون بالإصلاح ؛ بل من المستطاع أن يضطهد هؤلاء وأن يلقى بهم فى أعماق السجون ، أو ينفوا من الأرض،

أو تُسفِك دماؤهم ، إذا تبين ألا سبيل إلى رجوعهم عما هم فيه من إثارة النفوس بالدعوة إلى الإصلاح والحرية .

أما رجال الكهنوت الرسميون ، الذين يحسبون أن كل معرفة لا تأتى عن سبيلهم لا بد أن تكون على خلاف مع التقاليد والدين ، فيرون فى فكرة الإصلاح الاجتماعى والسياسى خطراً يهدّد كيانهم ؛ إذ أن كل خطوة يخطوها المجتمع نحو الحرية تدنو بهم من الهزيمة . ولذلك لا يتردد بعض هؤلاء من لا خلاق له فى الحكم بمروق المصلحين ، وقد يكون هؤلاء أفضل منهم منزلة عند الله والناس ؛ بل كثيراً ما يحاربون أهل الفضل والعلم باسم الدين ، ويقفون فى طريق تحرير الشعوب بما ينفثونه فى قلوب الأمراء من أن إشراك الأمة فى تدبير أمرها مضاد لما جرت به تقاليد الأمة الإسلامية من انفراد الملوك بالسلطان ؛ حتى دخل فى روع هؤلاء أن الدين لا يتفق مع بعض النظم السياسية الحديثة التى تطالب بها شعوبهم للنهوض من كبوتها ، وأن الخير كله فى أن ينفردوا بالحكم ، حفظاً للأمة من أن تنزلق إلى الثورات والفتن الداخلية .

وفى دولة الجهل والاستبداد ترجح كفة العلماء الأدعياء ؛ لأنهم أقل الناس حياء ، ولأن العلماء الحقيقيين لا يرون فى النفاق أو التملق سبيلا إلى فرض أنفسهم أو علمهم ؛ بل يؤثرون أن يظلوا فى غمار الناس ، بدلا من أن ينافسوا من يزعمون العلم لأنفسهم حتى يتقربوا به إلى ملوكهم الطغاة :

وخفَّ بالجهل أقوامٌ فبلّغهم ... منازلاً بسناء العزّ تلتفع

أما رأيت جبال الأرض لازمة ... قرارَها وغبارُ الأرض يرتفع؟

حـ ـ نهاية التحالف :

وعلى الرغم من وقوف رجال الدين الرسميين فى طريق الإصلاح ومعاضدتهم للمستبدين ، فمن الحق أن يقال إن المسلمين سيبقون بخير ما داموا على ذِكْر من أصول دينهم التى توجب عليهم الاتجاه إلى الخالق وحده ، دون حاجة إلى وساطة فريق منهم . ولذلك لم تخل بلاد المسلمين من علماء دينيين يتبعون الحق ، ويأبون الاستكانة للملوك . وهؤلاء هم الأحرار الذين يحملون المشاعل أمام هذه الأمم المنكوبة بملوكها وعلمائها الأدعياء ، وهم الذين إن كتب لهم النصر عاد المسلمون إلى عزتهم ، وتحرروا من أوهام المشعوذين وطغيان المستبدين . ووجود هؤلاء العلماء الحقيقيين صمام أمن للعقيدة الإسلامية التى لم تخمد جذوتها ، والتى توجد على صفائها فى بعض النفوس ، رغم ما لحقها من مسخ وتشويه فى نفوس الآخرين . ولذلك نجد أن تحالف الملوك ورجال الكهنوت ، وإن أضر كثيراً ، إلا أنه لم يقض تماماً على كل أمل ، وأن دعوة صادقة إلى الإصلاح كفيلة بأن ترفع نير الذل عن رقاب الناس ، وأن تحررهم من الطغاة ومن المدعين للعلم .

وهذا هو السبب أيضاً فى أننا إذا استثنينا الفترة التى استفحل فيها أمر فرقة الباطنية وجدنا أن الإسلام لا يعرف الجمعيات السرية التى تحاول تغيير الأوضاع باتباع أية وسيلة ، ولو كانت الغدر والاغتيال ؛ لأن من حق كل مسلم أن يقول ما يعتقد خيرا ، وعنده من الآيات والنصوص التى تدعو إلى العدل والإحسان والرفق والرحمة بالرعايا ما لا يستطيع رجال الكهنوت أن يخرجوها عن معانيها ، أو أن يؤاخذوه على الاستشهاد بها ، وإلا أثاروا الناس كافة عليهم . ونقول بعبارة أخرى إن تحالف الملوك ورجال الدين

على ظلم الأمة لا يجد له سنداً من قرآن ولا سنة ، فهو يقوم على غير أساس، وهو أقل خطراً من التحالف بين هذين الفريقين فى بعض الأمم الأخرى .

فالتحالف بين المسيحية والملكية أشد قوة وأعمق أثراً بكثير من التحالف بين الملكية والعلماء الأدعياء عندنا . وفى حين أن النصوص الإسلامية الصريحة التى لا يمكن إخراجها عن مواضعها تقرر أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق نجد أن أقوال كبار الرسل لدى المسيحيين تنص على ضرورة الخضوع للحاكم : فمثلا يقول الرسول بولس للرومانيين : « لتخضع كل نفس للسلاطين العالية، فإنه لا سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة إنما رتبها الله فمن يقاوم السلطان يعاند ترتيب الله . » وقد ظن الناس فى أوروبا ، حتى قبيل الثورة الفرنسية ، أن ملوكهم ظل الله على الأرض ، وأنهم نواب سلطته ، وكانوا إذا وجدوا فيهم خللا أو نقصاً رضوا به خوفا من شر أعظم يحل بهم إذا خلعوا نير طاعتهم ، وذلك كله بفضل رجال الكهنوت عندهم .

وقد أثار تحالف الملوك ورجال الكهنوت نفوس الأحرار من الأوروبيين ، فاتفق هؤلاء على أن يناضلوا هذا العدو المشترك ليجهزوا عليه . غير أن القوة لما كانت فى جانب هذا الخصم الرهيب أجمع الأحرار أمرهم على أن يعملوا سراً ، وأن يهيئوا العقول شيئاً فشيئاً للثورة على الاستبداد والمستبدين . فنشأت الجمعيات السرية التى ما زالت تنمو شيئاً فشيئاً ، حتى استطاعت أن تدفع الجماهير إلى الثورات التاريخية الكبرى . ومن أشهر هذه الجمعيات جماعة البنائين الأحرار أو الماسونية . ولم تكن هذه الجماعة حديثة العهد ؛ بل ترجع إلى أصول بعيدة ليس من هدفنا أن نتتبعها فى مختلف

المراحل التاريخية . وقد نجحت هذه الجماعة فى الاستكثار من الأتباع فى البلاد المسيحية ؛ لكنها لم تصب نجاحاً كبيراً فى بلاد المسلمين ، ذلك أن الإسلام لا يعترف بالكهنوت ، ولا يشتد ساعد هؤلاء إلا فى عصور الجهل كما قلنا .

وإن من يطلع على ما كتبه أعداء الماسونية وأنصارها ليفجأه اتفاق الفريقين على أن هذه الجماعة تهدف إلى القضاء على كل من الملكية والكاثوليكية ، وأنها إذا أفسحت صدرها لبعض الملوك ورجال الدين فذلك لأنها تحرص على إرضاء غرورهم بالاشتراك فى طقوسها واجتماعاتها ، دون أن تكشف لهم النقاب عن أسرارها التى لا يطلع عليها المنتسب إلى الماسونية إلا فى الدرجات الأخيرة منها .

ونحن لا ندعى الإحاطة بكل شىء عن هذه الجماعة . حقاً قرأنا كثيراً مما كتب عنها ، وربما كانت المبادىء الإنسانية التى تنادى بها تخفى وراءها شيئاً لا يعرفه إلا الماسون أنفسهم ، ممن بلغوا أرفع الدرجات فى طائفتهم . غير أن من يقف عند ظاهر عباراتهم ومبادئهم يجب عليه أن يعترف بأنهم يمجدون العقل ، ويعملون على تحرير النفوس من طغيان الملوك ورجال الدين .

ويكفى أن يقرأ المرء الأقسام التى يحلفها الماسونى عند التحاقه بهذه الجماعة ، أو عند انتقاله فى مراتبها ، وبخاصة المراتب الأخيرة — أى من المرتبة الثلاثين إلى المرتبة الثالثة والثلاثين — ليعلم إلى أى حد تهيمن عليهم روح العداء للاستبداد الملكى والكهنوتى . فمن ذلك قسم الدرجة الثلاثين ، وفيه يتعهد من يرتقى إلى هذه المرتبة أن يدوس بقدميه التاج الملكى ، لا على أنه رمز لنوع خاص من الحكومات ، أو لنوع من أنواع استغلال السلطة ؛

لكن على أنه شعار للاستبداد أياً كان نوعه ومظهره ؛ وأن يطأ بقدميه تاج البابا ، لا على أنه رمز لعقيدة أو لدين أو لهيئة كهنوتية ، ولكن على أنه شعار للطموح والتجبر والشعوذة التى تخضع الرقاب لنيرها عن طريق القسوة ، وتقضى على الذكاء عن سبيل الأوهام والأباطيل التى تترعرع فى ظلال الجهل ، والتى تعد حليفاً مخلصاً للطغيان . كذلك يصرح الماسونى أكثر من هذا بأنه عدو لاستبداد الحاكمين والقسس الذين يقضون على حرية الإنسان ، وحرية الفكر ، وحرية الضمير ؛ ويعلن أنه يكره الظلم ، ويحترم الحرية المطلقة للضمير احتراما غير مشروط بشرط ، وحرية الفكر ، وحرية الكلام ، وأنه يبغض التعصب والنفاق والزهو واستغلال رجال الكهنوت ؛ وأنه يحتقر الشعوذة وخرافات المتنبئين والكهنة والديماجوجيين .

وفى الدرجتين الأخيرتين يغلظ الماسونى الايمان على أنه سيحارب الملكية والكاثوليكية حتى الموت ، وأنه لا يؤمن إلا بإله واحد حى هو المهندس الأكبر للكون . ومما يدل صراحة على أن العدو الأول للماسونية هو الملكية الاستبدادية والكاثوليكية أن « ديدرو » ، أحد رجال دائرة المعارف الفرنسية قبيل الثورة ، لخص شعار الماسونية بهذه العبارة ، وهى : « ينبغى أن يشنق آخر الملوك بمصران آخر الكهنة . »[1] ومن المؤكد أن الماسونية لا تؤمن بالتثليث ؛ بل إنها تذهب فى بعض طقوسها إلى تدنيس بعض العقائد المسيحية فتأمر أعضاءها بأن يدوسوا الصليب بأقدامهم عند انتقالهم إلى إحدى درجاتها ، كما أنها تمسخ بعض طقوسها : مثال ذلك أنها تقيم ما يشبه العشاء الربانى لدى المسيحيين ، فتقدم لأعضاءها خمراً قد ثبتت أطرافه ورأسه بالمسامير ؛ وعند

(١) الأب لويس شيخو فى كتابه « المراصون فى شيعة الفرمسون »

البدء فى أكله تُرمى هذه الأجزاء على أنها مدنسة.[1] وهذا وغيره يفسر لنا العداء الشديد بينهم وبين رجال الكنيسة . وقد نجح الماسون فى كثير من البلاد الأوروبية ، واستولوا على مقاليد الحكم ، ونفذوا مبادئهم ، وبخاصة فى فرنسا، ابتداء من الثورة الفرنسية حتى العصر الراهن . ومن أهم مظاهر غلبتهم أنهم فصلوا الكنيسة عن الدولة ، وجعلوا التعليم الحكومى علمانيا ، أى مدنيا بحتاً .

أما ما يرميهم به أعداؤهم من الإلحاد أو عبادة الشيطان بدلا من الخالق، فليس لدينا ما يدعو إلى تأكيده أو نفيه . ومن الممكن أن توجد محافل ماسونية ملحدة وأخرى مؤمنة . غير أننا رأينا أعداء الماسونية من رجال الكهنوت يعترفون بأن خصومهم يقولون بوجود سبب أول منظم للكون ، وإن اختلفوا فى تحديد هذه العلة الأولى التى يصفونها ، على كل حال ، بأنها ليست ذلك الإله المستبد الذى يُكره كهنة الكاثوليك أتباعهم من الجهلة على الإيمان به . وإذا كنا قد أبحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا فى الكلام عن موقف الماسونية من الدين ، ومن المسيحية بصفة خاصة ، فذلك لنبين ، فى طريقنا ، أن انضمام أمثال جمال الدين ومحمد عبده إلى هذه الجماعة فى فترة من حياتهما ، كان انضماما صوريا ، بدليل خروج الأول والثانى عليها . حقا ذهب جمال الدين إلى أن التفرقة بين الأديان إنما ترجع إلى موقف رجال الكهنوت فى مختلف الملل ؛ إذ لم يحرص هؤلاء على بقاء الخلاف بين أتباعهم ، وبينهم هم أنفسهم، إلا لكى يحتفظوا بمكانتهم، ويتجروا بالدين لتحقيق مصالحهم . ومع ذلك فإنه يؤكد دائما أن الدين ضرورى لكل مجتمع ، سواء كان هذا الدين إسلامياً

(١) أخذنا هذا المثال من كتاب « ليوتاسكيل » عن الماسونية .

أم مسيحياً أم يهودياً أم دينا غير موحى به . (١) أما محمد عبده فقد انضم إلى الماسونية، لأنه كان يظن أنه ربما يستطيع بذلك خدمة الإسلام والمسلمين . غير أنه لما عاد من منفاه لم يذهب إلى المحافل الماسونية ولا مرة واحدة . (٢)

٣ — مسئولية رجال الدين

١ — جبناء أو مراءون :

لقد رسخت قدم الاستبداد فى الشرق ، وألفه الناس حتى نسوا معنى الحرية ، وأصبحوا يرون أن الطغيان السياسى هو النظام الطبيعى الذى يجب التسليم به والرضوخ له ؛ بل السعى إليه إذا اتفق أن ولى أمر المسلمين كان حاكما عادلا رحيما . وسرت عدوى اليأس إلى ذوى الفكر والرأى فرضوا لأنفسهم مكانة لا تختلف عن مكانة العامة ؛ إذ ثبطت الهمم ، وزهد الناس فى العلم ، وخلا الجو لنفر من المتملقين الذين يجيدون التكيف دائماً بمثل هذه البيئة الاجتماعية المعتلة ، ويعلمون من أين يكتسب الجاه ، وكيف تقتنى الثروة من غير جهد أو عناء ، وبأية وسيلة يدنو المرء إلى مجالس الملوك . أما علومهم الدينية فلا يعرفون عنها شيئاً ذا قيمة ، لأنهم انصرفوا عن فهمها حق الفهم ، ولو أنهم فطنوا إلى روحها لسلكوا مسلكا غير الذى ارتضوه لأنفسهم . غير أن ذلك لا يمنعهم أن يكونوا غاية فى الصرامة إذا طلب إليهم إصدار حكمهم فى أحد أفراد الرعية ، ولا سيما إذا كان ممن لا يرتضى مسلكهم فى التقرب أو الخضوع للمستبد؛ وكأن هؤلاء هم الذين قال فيهم أبو العلاء :

---

(١) أنظر فى هذه المسألة كتابنا عن جمال الدين الأفغانى : صفحة ١٣٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر من صفحة ٤٠ إلى ٤٣ .

نادت على الدين فى الآفاق طائفة يا قومُ من يشترى ديناً بدينار
جنوا كبائر آثام وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلدَ فى النار

فإذا دنوا من مجالس الملوك ، اصطنعوا المداجاة والنفاق ، وأخذوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وتسابقوا إلى الحاكم المستبد يسبحون بحمده ، ويظهرون له ولاءهم ويعلنون عن استعدادهم للسير فى ركابه . فكان من الطبيعى أن تتسع أرزاقهم ، ويمتد نفوذهم لقاء نصيحة السوء يزجونها فى غير تكلف لولى أمرهم السادر فى غيه .

أما الآخرون ممن منعهم الحياء من بيع أرواحهم للشياطين فقد قعد بهم الجبن والخوف عن الاشتراك فى الحياة العامة للتخفيف من وطأة الظلم التى يشعر بها المستضعفون فى الأرض . لقد شهدوا كيف ترتفع قواعد الظلم والعسف ، وتنتصر دولة الباطل فلم تطاوعهم ألسنتهم على الدعوة إلى الحق والعدل . إنهم يرهبون بطش الحاكم ، ويخشون نزق وسفه الأدعياء ممن ينتسبون إلى طبقتهم ، فيؤثرون الصمت وهو نوع من الرضا ؛ ويحتجون على الإثم والعدوان بقلوبهم وهو أضعف الإيمان ؛ ويرغبون عن النصح وإسدائه لأنهم موقنون أنه سيذهب أدراج الرياح ، ولأنهم يعلمون أو يحسبون أن الناس فقدوا ثقتهم بكل ناصح وداع إلى الحق لكثرة ما سمعوا وخُدعوا ، وغرّ بهم باسم الدين ، حتى اشتبه الأمر عليهم ، وعسرت عليهم التفرقة بين أنصار الحق ودعاة الباطل ، فرضوا آخر الأمر أن يصموا آذانهم عن سماع النصح أياً كان مصدره .

فكيف لذوى الحل والعقد من المسلمين الذين تتقطع أنفسهم حسرات على ما انحدر إليه أبناء ملتهم أن يتطوعوا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

إنهم يرون المنافقين المداجين هم السابقون الأولون ، وهم الأخيار المقربون ؛ فيملأ عليهم الجبن أنفسهم ، ولا يخطر لهم خاطر أن يكشفوا عن ادعاء هؤلاء المهرجين حتى يعلم الخاصة والكافة نفاقهم واتجارهم بالدين . ولو جال بخيال أحد منهم أن يهب لمقاومة هؤلاء العلماء المتملقين لما لبث هذا الخيال فى خاطره لحظتين : إنه يظن أنه من الحمق والطيش أن يقف وحيداً فى طريق الباطل ، وأن يدعو إلى الهدى فى أمة من الضالين ؛ إنه لو فعل لأصبح هدفا لكل سهم يأتيه من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى ، وضحيةً تقدم على مذبح مطامع ذوى الحظوة لدى الحاكم المستبد ؛ إنه يحسب أنه لو قام يدعو إلى الحق لمرّ به الناس غير حافلين ؛ بل ربما وجدوا أن ما قد ينزل به من أشد النوازل والمصائب جزاء عادل لتهوره وتهجمه على مقام مَن يجب أن تحنى له الجباه حتى تقبل الرغام .

ثم قد لا يعدم ذو الضمير الحى من يسخر منه لضيق عقله ، وفساد بصيرته ؛ إذ كيف لعاقل يعيش فى دولة البغى والملق أن يجاهر برأيه الحر ، وأن يطلب الإصلاح بعد أن أنسدت مسالكه ، وانقطعت وسائله ؟ أما كان أولى به ، لو كان عاقلا أن يرتضى لنفسه ما ارتضى رفاقه لأنفسهم ، وألا يجرؤ على نصح من لا يجدى النصح فيه ؟ أو لم يكن من حسن السياسة ألا يلقى بنفسه إلى التهلكة ، وقد كان الطريق أمامه معبداً نحو ما ينعم به أقرانه ممن عرفوا كيف تكتسب ثقة المستبد ، وكيف تُنتزع لقمة العيش من أفواه الجاعين ! لقد كان له أن يتبع سبيلا سهلا مُعَبّدا ، فآثر أن يسلك طريقا وعرا تكتنفه الصعاب من كل جانب ، وتغشاه ظلمات بعضها فوق بعض ؟ أو لم يكن من الخير له

أن يخذل الحق ، وأن يسلك سبل الباطل ، وأن يدع نصح الملوك جانبا ، وأن يتملقهم وينال أجره على ذلك ؟

تلك هى الهواجس التى تعتمل فى نفس العالم الجبان الذى يأبى النفاق ويكره الظلم ، ويشعر بالرحمة للبؤساء من بنى ملته . ولكنها هواجس تمر بالخاطر وتسنح للخيال ، ثم تنقشع ويرضى صاحبها بأن يدع العلم لهؤلاء الحذاق من المتعممين الذين كتبت لهم الحياة الطيبة فى كثير من البلاد الإسلامية عندما ارتضوا أن يتحالفوا مع المستبد ، وأن يتخذوه ولياً لنعمتهم يمنحهم المال بيد ، والدرجات العلمية بيد أخرى، ولا يطلب إليهم شيئاً إلا أن يخالفوا ضمائرهم ، إذا اتفق أن تردد فيها صدى من أصداء الحق ، وإلا أن يكونوا له أبواقا تمجد أعماله وتحبب إلى الرعية الرضا بنقائصه .

وهل لمن يدعى العلم مطمح أسمى من هذا المطمح : علم ومال بغير عناء ؟ لقد ساهم رجال الدين من الأتراك بمثل هذه الوسائل فى تحطيم أركان الخلافة الإسلامية ، وساعدهم على ذلك أنهم وجدوا فى أحلك عصور الاستبداد ، وعرفوا كيف ينالون مكانتهم فى قلوب السلاطين بملقهم ووسواسهم . وكانت نتائج هذا المسلك هو ما نراه من تفكك الدولة الإسلامية وسقوط كثير من أجزائها فى قبضة دول الاستعمار . كل ذلك لأن رجال الكهنوت كانوا لا يعنون بمستقبل المسلمين عشر معشار ما يعنون بأنفسهم . إنهم يفضلون أن تتمزق الأمبراطورية العثمانية بسبب ضعفها واستبداد خلفائها وجبن أو نفاق علمائها ، بدلا من أن يفقدوا ما اكتسبوه من سلطان ونفوذ .

لقد كان شيخ الإسلام هناك يحرض السلطان عبد الحميد فى أواخر القرن الماضى على عدم الاستماع إلى دعاة الحرية ، والمنادين بإدخال النظام النيابى ،

وكان يحضه على الوقوف موقف الحازم من هؤلاء المتمردين ، بحجة أن هذا النظام الذى يطلبونه لا يصلح للمسلمين الذين لايستقيم لهم مثلك إلا إذا كان على رأسهم مستبد عادل ، مع الاستبداد والعدل لا يجتمعان مطلقاً . كذلك كان ينظر بعين الرضا إلى جيوش الجواسيس التى أحاط بها السلطان نفسه ، ويطرب عندما يعمل هذا الأخير سيف الغدر فى رقاب الأحرار ؛ ذلك لأن شيخ الإسلام هناك كان يود البقاء دائماً بجوار عبد الحميد يفسر له أحلامه ، ويشير عليه بالأساليب التى يجب أن تتخذ لإنقاذ الدولة المشرفة على الفناء ؛ كل ذلك لأنه كان يرى فى مجىء الحرية نذيراً بالقضاء على منزلته لدى سلطان تركيا . (١)

ومن قبل، أى منذ قرنين من الزمان، لم يجد علماء الدين فى تركيا غضاضة فى أن يعفوا أنفسهم من مهمة تقويم الملوك ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد ؛ بل نجحوا فى أن يضعوا مقاديرهم فى يد السلطان ؛ لأن ذلك كان خيراً فى ظنهم من أن يؤدوا للدين أمانته . وقد اتخذوا لأنفسهم — كما يذكر لنا عبد الرحمن الكواكبى — قانوناً سموه طريق العلماء ، وهو القانون الذى يجعل الدرجة العلمية منحة ينالها من ليس لها أهلا ؛ بل قد ينالها الجهلة والأطفال والأميون . « فإنه يكون طفلا فى المهد وينعت، فى منشوره الرسمى من قِبَل حضرة السلطان ، بأنه أعلم العلماء المحققين ، ثم يكون فطيما فيخاطب بأنه أفضل الفضلاء المدققين ، ثم يصير مراهقاً فيعطى المولوية ويشهد له بأنه أقضى قضاة المسلمين، معدن الفضل واليقين ، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، ثم وثم حتى يصعد ، فيوصف بأعلم العلماء

(١) أنظر كتابنا : جمال الدين الأفغانى صفحة ٨١ ، ٨٢ .

المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ، ينبوع الفضل واليقين ، إلى آخر ما فى تلك المناشير من الكذب المشين . »

فإذا ربع هؤلاء الجهال على عروش العلم ردّوا إلى السلطان أكثر مما خلعه عليهم ، فوصفوه بأنه « المولى المقدس ذو القدرة ، صاحب العظمة والجلال ، المنزه عن النظير والمثال ، واهب الحياة ، ظل الله ، خليفة رسول الله ، مهبط الإلهامات ، مصدر الكرامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين ، ولى نعمة الثقلين ، ملجأ أهل الخافقين إلى غير ذلك من مصارع الشرك والكبرياء والمهالك . »

وعلى هذا النحو يتبادل الخليفان العون ، وتضيع مصالح العباد وتركد ريح الدين وسط مظاهر النفاق والملق . « ثم إن هؤلاء المتعممين ما كفاهم هذا القانون ، فألحقوه بقانون آخر سموه : « توجيه الجهات » ، جعلوا فيه التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية ، كالعروض تباع وتشترى ، وتوهب وتورث ، وما ينحل منها نادراً عن غير وارث يبيعها القضاة لمن يريدون ويتكرمون بها على المتملقين . وبهذا القانون انحصرت الخدم الدينية فى الجهلاء والمنافقين . »[1]

فبفضل العلماء الجبناء والأدعياء المنافقين ، مُسخ الدين فى نفوس أهله ، وضاع العامة بين ملوكهم وعلمائهم ، وخسر الناس دينهم ودنياهم ، إلا نفراً قليلا ضحوا بآخرتهم من أجل عاجلتهم . وبمثل هذا الخسران تتدهور الأمم ، وترسف فى قيود الذل ، وتتطلع بآمالها فلا تجد منفذاً لإصلاح ، فتنقلب

---

(١) أم القرى ص ٤٠ ، ٤١ .

إلى الوراء لترى مُلكاً زائلا ومجداً ضائعاً ، فلا تجد سلوى عن مصابها سوى البكاء على ما لا سبيل إلى رده ، لا بالأنين ولا بالنحيب ، ثم تتوالى البطون وتتتابع الأجيال ، فيستفحل الداء ، ويعظم الفساد ، وينقطع الأمل ، ويتعذر العلاج ، ولكن يستمر البكاء حيناً من الدهر ثم تجف الدموع ، وقد نسى الباكي سبب بكائه ، ورضى بما رماه به القضاء والقدر فلا يحزن لما يحل به من مصاب لكثرة ما أصيب . وساعد جبن العلماء على فتور الهمم ففسد العلم ، وقل أهله ، وسيطر الجهل غير منازع ، وأصبح الناس يعتقدون أن الاهتمام بالأمور العامة نوع من الفضول والتطفل . فغدا كل فرد من أفراد الأمة لا يشغله شاغل سوى نفسه وحفظ حياته ليومه ، لا يعنيه في قليل أو كثير أن تضل هذه الأمة أو تهتدي .

ب — محاربة الإصلاح :

وإذا كتبت الغلبة في الأمة لجماعة المنافقين من العلماء ومن يتبعهم من السذج والجهلة — وكثيراً ما جرت الأمور على هذا النحو — حورب الإصلاح ، وانقطع الأمل في التجديد والتحرر من قيود الجمود والتقليد . وقد شهدنا كيف حارب الناس طائفة المعتزلة ورموها بالكفر . وقد سمعنا كيف ضاق الأزهر في القرن الماضي بآراء جمال الدين ورماه بالإلحاد ، وكيف هاجت نفوس أهله عندما جاء محمد عبده ينادي بضرورة التجديد في دراسة العلوم الإسلامية ووجوب العناية بالعلوم النظرية والعملية التي كانت سبباً في تقدم الغرب .

وليست محاربة الإصلاح في مثل هذه الحال أو تلك بالأمر العسير ؛

إذ يكفى أن ينطق أحد المتعممين أن الجغرافيا والرياضة والطبيعة والفلسفة علوم كفر وزندقة ، وأن يقرر أن الداعين إلى دراستها من المارقين والخوارج ، حتى يهرع المستبد إلى نجدته ، وتهب العامة لندائه ، وتدق طبول الحرب ، فتخترع التهم ، وتكال الشتائم ، وتبتكر ألوان جديدة من السباب وتقوم دنيا الجهل وتقعد ، ولا تهدأ ثائرة القوم ، إلا إذا ركدت ريح الإصلاح . وعندئذ ينقلب كلٌّ إلى أهله فرحاً مسروراً ، يزهو بما فعل : ألم يقف فى وجه الإلحاد ؟ أو لم يساهم قدر طاقته فى القضاء على شرذمة الخونة المتفرنجين الذين أرادوا تغيير الأوضاع ومسخ الدين ، وفتح باب الزيغ والبدعة ؟

وما الدين عند هؤلاء إلا الرضا بالمصائب والصبر على المكاره ، والسير الذليل على آثار السابقين المدققين المحققين من العلماء الذين أفنوا عصارة عقولهم فى وضع أسس العلم النهائى الذى لا علم بعده ، ويريدون بهم هؤلاء الذين ألّفوا كتبهم فى العقائد والنحو والتفسير ؛ وبخاصة من ألف منهم فى عصور التدهور والجهل كتبا تبدو فى أعين علماء العصور الأخيرة كما لو كانت أسمى ما أنتجه العقل البشرى ، مع ما تمتلىء به من مشاكل مزعومة وحلول واهية وما تفيض به من الخرافات والإسرائيليات التى تحجب الحقائق البديهية التى جاء بها الكتاب والسنة . (١)

ولو نبغ من بين هؤلاء العلماء المقلدين رجل أبى أن ينكر عقله وأن يردد ما قاله السابقون ، فرأى أن العلماء يجتهدون فى ضلال ، وأنهم يفنون العمر فى دراسة علوم قد تحجرت وذهبت روحها فلم تبق فيها إلا عبارات معقدة ، وصيغ مكررة ـ نقول لو فطن أحدهم إلى ضرورة مسايرة الزمن والاقتباس من العلوم الحديثة ، والعودة إلى المنابع الإسلامية الأولى ،

(١) بينا فى مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة مقدار ابتعاد علماء الكلام عن روح القرآن .

فقام ينادى بالإصلاح ، لعجبوا لأمره ، وأنكروا عليه غرابة تفكيره ، وتوجسوا منه شراً . فإذا ألح فى طلب الإصلاح استمعوا إليه قليلا ، ليروا ماذا يكون من شأنه : فإن هو طالب بتحقيق شىء من الكرامة لهم بأن رأى ضرورة زيادة رواتبهم قالوا حباً وكرامة ، فإذا نصح بإدخال نظم الامتحانات كما هى الحال فى المدارس أو الجامعات الأوروبية بدأ الريب يدب إلى قلوبهم ، فقالوا : « أهذا هو الإصلاح الذى كادت آذاننا تصم من صخب الدعاء له ؟ وما جدوى هذه النظم وما عسى أن تحققه من خير ؟ ألم تخلد معاهدنا على الزمن ؟ ففيم التجديد وتقليد الأجانب ؟ لقد كانت نظمنا القديمة أفضل النظم ، وقد تخرج فى ظلها مئات العلماء الأفاضل الأجلاء . إن هذا الإصلاح ما هو إلا خدعة يراد بها القضاء على التقاليد الإسلامية التى ورثناها جيلا بعد جيل . » ومع ذلك فربما قبلوا هذه النظم بعد كثير أو قليل من المساومة لكسب بعض المزايا الجديدة ، أو بعد أن رأوا أنها ترتبط ، من قريب أو بعيد ، بإصلاح حالهم ، وزيادة رواتبهم .

فإذا قيل لهم بعد ذلك إن الإصلاح ينبغى ألا يقف عند المظهر والشكل ، وإنه لابد من أن يتطرق إلى الموضوع واللب ، أى إلى العلوم التى تدرس فى معاهدهم ، بحيث يفسح المجال للجديد ، وبحيث يهذب وينقح القديم للتخلص مما لا جدوى منه ، دون القضاء على الأصول الأولى التى لا يندّ أحد عن الاعتراف بها ، والتى لا تتطلب من الباحثين أن يثيروا بصددها مشاكل لاحصر لها ، تنبت عادة من خلاف لفظى أو تترتب على سوء الفهم ، ولكنها تزدهر وتتفرع وتؤدى إلى مشاكل وعقائد جديدة فى ظل الجمود والجهل — نقول إذا دعاهم إلى إصلاح اللب والعودة إلى المصادر الأولى اضطربت

خواطرهم ، وثارت ثائرتهم ، وعلا ضجيجهم ، وهبوا جميعاً لمحاربة هذا العدو الذى يلبس ثياب الصديق ، وهذا المارق الذى خرج على الإجماع ، وهذا الملحد الذى يدعو إلى الاجتهاد ، لا لشىء إلا للقضاء على التراث القديم بحجة الإصلاح والتطور !

هذا هو موقف العلماء الرسميين من فكرة الإصلاح منذ أن ارتضى المسلمون أن ينصروا أهل الرواية والتقليد على أهل الفكر ، وأن يسدوا باب الاجتهاد ، وأن يقنعوا بما يردده الأولون ، أى منذ أن كتب لأتباع الأشعري أن يغلبوا المعتزلة على أمرهم . وهذا هو ماحدث فى أغلب الأقطار الإسلامية منذ أن تفرق الشمل ، وتصدع الصرح ، وتشتت الفكر ، ودبت مظاهر الانحلال فى هذه الأمة الكبيرة .

ومن قبل رفض جمال الدين ما زعمه الفقهاء من أن باب الاجتهاد قد أوصد عند أهل السنة ، فلا مجال لمجتهد أو باحث . فقد ذكروا يوما فى مجلسه رأياً للقاضى عياض ، ورأوا فيه أنه غاية ما يمكن أن ينتهى إليه الاجتهاد ، واشتد تمسكهم به حتى أنزلوه منزلة الوحى بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقال جمال الدين : « يا سبحان الله ، إن القاضى عياض قال ماقاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ماهو أقرب إلى الحق وأوجه ، وأصحّ من قول القاضى عياض أوغيره من الأئمة ؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم . [1] قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا

---

(١) قال كلود برنارد قولا شبيها بذلك : إن احترام الآراء المتوارثة احتراما يقوم على الخمول وسوء الفهم معناه اتباع سبيل الأوهام والأباطيل . وقد يكون ذلك عقبة حقيقية =

وقالوا . . . وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان. » ولما اعترض عليه بعض جلسائه بسدّ باب الاجتهاد قال: « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نصّ سُدّ باب الاجتهاد ؟ أو أى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين؟ أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهوم منهما؟... نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ، ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا . . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم . » (١)

وهذا العداء للاجتهاد والإصلاح هو ما حدث، ويحدث فى عصرنا الراهن، وهذا هو ما وصفه الأستاذ أحمد أمين عند ما عرض لموقف رجال الأزهر منذ خمسين عاما من دعوة الإمام محمد عبده إلى إصلاح هذه الجامعة الإسلامية الكبرى حتى تساير الزمن ، وحتى لا يضطر الناس إلى ترك الدراسات الدينية التى لم تعد تسير جنباً إلى جنب مع الدراسات العلمية الحديثة « يالله وإصلاح الأزهر ! ماحاوله أحد من قبل ونجح ، ولولا الشيخ محمد عبده ؛ لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت عن سبيل استرضاء أهله ، والخوف من أى قلق واضطراب ، والأزهريون

= فى سبيل تقدم العلم ، وهو فى الوقت نفسه مضاد للا مثلة التى ضربها لنا عظماء الرجال فى جميع العصور ، فليس عظماء الرجال فى الحقيقة سوى هؤلاء الذين جاؤا بآراء جديدة ، وهدموا الأخطاء ، فهم لم يحترموا شهرة سابقيهم . وهم لا يفهمون كيف يسلك الآخرون تجاههم مسلكا مخالفا الخ . أنظر كتابنا المنطق الحديث ومناهج البحث ، ط ٢ ، ص ٢٤ .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

كان يتزعمهم طائفة ألِفَت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت فى المغارات فلم ترضوءا ، وأفنت عمرها فى فهم لفظ ، وتخريج جملة ، وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا . فإذا أتى مصلح سمم أهله الجوّ حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين إلى التجديد ، وحرصوا على مراكزهم أن يكتسحها الإصلاح وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ، وبجانبهم طائفة أخرى تؤمن القديم عن صدق وإخلاص ، ولكن عن ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ؛ هم من جنس ما قال أهل الحديث عن بعضهم « نتطلب دعوتهم ولا نقبل شهادتهم . » فتجمع كل هذه العوامل فيضطر المصلح ـ أخيراً ـ إلى الانسحاب إن غضب ، أو المداراة والمسالمة والرضا بالموجود إن لم يغضب ، وتُضطر الحكومة أن تتخلى عن إصلاح الأزهر حباً فى السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضاً ، وتنشىء بجانبه المعاهد لمعلمى اللغة العربية والقضاء الشرعى ، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها ؛ إذ أعجزها الإشراف على الأزهر . . [1] »

وهذا مثال نذكره ، ولا نريد به طائفة خاصة ؛ إذ من الممكن أن يجد المرء أمثلة شبيهة به فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وإنما سقناه لكى نستنبط العظة منه ، وهى أن ثورة علماء الدين على فكرة الإصلاح قد تبلغ حداً يجعلنا لا نصف خروج بعض تلاميذهم عليهم بأنه مروق أو جحود ؛ بل يحفزنا إلى النظر إليه على أنه غضبة للحق ونوع من الوفاء للدراسات الإسلامية

---

(١) زعماء الإصلاح : ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

الحقة ؛ إذ يتجلى فى مثل هذا النقد المرير الذى يسوقه الأستاذ أحمد أمين لون من الحسرة على ما وصلت إليه المعاهد الإسلامية عندما تشبثت بعلوم أو شبه علوم كانت تدرس فى عصور الانحطاط والتدهور [1] ، ولم تفطن إلى أن العلوم الحديثة التى تحاربها بكل هذا العنف ربما كانت أكثر عوناً لها من علومها العتيقة على إظهار الدين الإسلامى فى مظهره الحق ، وهو الدين الذى لا يحارب العلم ، ولا يناهض العقل ؛ بل يجد فيهما خير أعوانه .

هذا إلى أن العلماء الرسميين لا يريدون الإصلاح لا لأنفسهم ولا لغيرهم . وبقدر ما ينشطون إلى الدفاع عن مصالحهم الخاصة يرى المرء مع كثير من المصلحين أنهم لا يؤدون واجبهم الأول على النحو الذى كان ينبغى لهم أن يفعلوا . فهم مقصرون فى الدعوة إلى التمسك بأصول الدين والأخلاق ، وترويض النفوس للقيام بجليل العمل ، وهم بعدون عن الغاية التى من أجلها وجدت طائفتهم . وهم لا يحيون رابطة دينية ، ولا يفكرون فى القضاء على أسباب الخلاف بين أمراء المسلمين أو ملوكهم ، ولا يتخذون المساجد والمعاهد سبيلا إلى بث روح الوحدة الإسلامية ، مع أن كل مدرسة وكل مسجد يجب أن يكون « مهبطاً لروح حياة الوحدة . » ثم لا يخطر لهم خاطر ، كما يقول جمال الدين فى أن يخلقوا لهم مراكز فى مختلف الأقطار « يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشد التنزيل وصحيح الأثر . »

فهل فكروا فى أن تكون أيام الجمع موسماً للتعارف والتآلف وتذاكر

---

(١) قال أبو العلاء :

وقالوا فقيه والفقيه سموه ... وحلف جدال والكلام كلوم
أتوك بأصناف المحال وإنما ... لهم غرض فى أن يقال علوم

ما حل ببنى ملتهم ، والتدبر فى وسائل النهوض والإصلاح ، والعمل على نشر التعليم ، وتصحيح الآراء ، وتطهير الدين مما شابه من البدع ، والوقوف فى طريق الآراء الإلحادية التى تنتشر فى البلاد الإسلامية لعدم وجود ثقافة دينية كافية بها؟ إنهم لو تشاوروا وصرفوا جانباً يسيراً من جهودهم لخير المسلمين، بدلا من أن يبذلوها جميعها لنصرة المستبدين ونصرة أنفسهم لفعلوا شيئاً كثيرا ، أو لأدوا فى الأقل واجباً هو أمانة فى أعناقهم . إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة ، وهى أقرب الوسائل ؛ وإن التفتت إليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة . »[1] وهى فى أغلب الأمر جماعة ليست من العلمـــاء الرسميين ؛ بل من هؤلاء الذين يدفعون هؤلاء العلماء دفعاً إلى حضور المؤتمرات الإسلامية .

ولو أصر العلماء على ألا يشغلوا أنفسهم بأمور السياسة الإسلامية العامة ، وعجز الدافعون عن دفعهم إليها قسراً ، ولو قعدت بهم هممهم واختلاف آرائهم عن الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين فى مختلف أقطارهم وإلى القضاء على الخلافات التى فرقت بينهم فجعلتهم أهل سنة أو شيعة ـ نقول لو رفضوا أن يقودوا الجماهير من الوجهة السياسية لبقى مجال العمل واسعاً أمامهم لو شاؤا ؛ إذ يجدون أمامهم حقلا بكراً ، وهو النهوض بالناحية الأخلاقية ، ولو بذروا فى هذا المجال بذرة صالحة لالتفت حولهم القلوب ، ولارتفعت مكانتهم فى نفوس الكافة ، وللحقوا فى هذه الناحية برجال الدين فى الملل الأخرى ممن قد يجتهدون فى ضلال من ناحية العقيدة ، ولكن يأتون بالعجب العجاب من الوجهة الاجتماعية الإنسانية . فإن هؤلاء

---

(١) من كلام جمال الدين الأفغانى .

لما رأوا أن أبواب النفوذ والسلطان قد أوصدت فى وجوههم اتجهوا إلى العامة يرشدونها إلى أمور دينها ، ويهذبون أخلاقها وطباعها قدر طاقتهم ، مما ينهض بها ، وينتهى آخر الأمر بنهضتها السياسية والاجتماعية . ولقد فطن أصحاب العروة الوثقى ، إلى « أن الاعتدال فى أصول الأخلاق والتحلى بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به . . إلا إذا قام رؤساء الدين وحماته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها فى العقول ، ودعوة الناس إلى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها . . . أما إذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا فى تأدية أعمالهم ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة ، وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحاجات المعيشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى . »[1]

حـ ـ روح العداء للعلم :

وقد ظن العلماء الرسميون أن العلم يجب ألا يخرج عن دائرة الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل فى العقائد ، وهو ما يسمونه علم الكلام ، وربما أباحوا قليلا من معرفة الحساب للاستعانة بها فى علم الميراث . أما العلوم الأخرى من جبر وهندسة وعلم طبيعة وكيمياء فإنها تبدو لهم غير جديرة بأن تسمى علوماً . وإذا عرضت عليهم نتائج البحوث العلمية حاولوا إرجاعها إلى بعض ما اهتدى إليه السابقون من أئمتهم ، كأنما وقفت عجلة

(١) العروة الوثقى ص ١٤١ — ١٤٢ .

الزمن عند عصر معين كمل فيه العلم ، ولم يترك الباحثون فيه شيئا إلا وسبقوا إليه اللاحقين . حقاً كان العرب قد أخذوا بأطراف هذه العلوم ، واخترعوا بعضها كعلم الكيمياء والجبر ، لكنهم لم يفعلوا سوى أن بدأوا بدءا هيّناً ، ومع ذلك كان هذا البدء يبشر بالخير ، لولا أن زحفت موجة الجمود ، فوقفت فى طريق هذه العلوم وحورب أصحابها فيما بعد على أنهم مارقون ومشعوذون ، فماتت روح البحث ، وقضى على العقول ألا تعلم شيئاً آخر سوى العلوم الدينية وبعض العلوم التى تعد وسائل لها كعلم النحو والصرف والبلاغة والعروض . هذا إلى أن هذه العلوم الأخيرة قد تطرق إليها الفساد والخلل فى أثناء عصور الجمود ؛ إذ اختلطت بآراء منطقية وفلسفية فوقفت فى طريق نموها ، ونمت إلى تحجرها منذ عدة قرون ، حتى انقطعت الصلة بينها وبين الحياة الاجتماعية والعملية التى كان يجب أن تظل دائماً أداة جيدة للتعبير عن جميع دقائقها . وهكذا أصبحت الثقافة الإسلامية العربية التى يحرص عليها هؤلاء العلماء ، والتى يرفضون كل إصلاح بحجة المحافظة عليها ، ثقافة هزيلة لا تعتمد على الأصول الإسلامية الأولى ، ولا تتصل بالحركة العلمية ، فلا تشبع عاطفة ولا تروى غلة ؛ وإنما هى خليط من المناقشات والجدل الذى لا جدوى فيه ، وهى لا تزيد المرء علماً ؛ بل ربما قضت على ما لديه من استعداد جيد . وهذا هو السبب فى هبوط المستوى العلمى فى بلادنا على الرغم من طول مدة الدراسة ؛ وفى أن هؤلاء الذين لا تنجح مثل هذه الثقافة فى تشويه عقولهم قد ينبغون نبوغاً باهراً متى أتيح لهم أن يتصلوا بثقافات أكثر حيوية وأغزر مادة وأقوم منهجاً .

أما العلوم الأخرى التى قضى الفقهاء أنها لاتدخل فى نطاق الثقافة الدينية

فقد أحاطت بها هالة من كراهية القوم ونفورهم ؛ إذ المرء عدو ما يجهل . ثم أصبح الاهتمام بتحصيلها موضع نقمتهم ، كما أصبح المشتغلون بها هدفا للنقد والتجريح الذى ينتهى عادة بالرمى بالكفر أو الفسوق . لكن هذه العلوم التى ضاق بها فقهاء المسلمين انتقلت غضة الإهاب إلى أوروبا ، وفطن إليها بعض رجال الفكر هناك ابتداء من القرن الثالث عشر ، ونخص بالذكر من هؤلاء روجر بيكون الذى يعد أمير الفكر الحقيقى فى القرون الوسطى ؛ فهو الذى وضع البذرة الأولى للتفكير القائم على الملاحظة والتجربة هناك ، بعد أن اطلع على الثقافة العربية ، واهتدى إلى أهم ما تنطوى عليه هذه الثقافة من الأصول التى يمكن أن تعتمد عليها العلوم التى تدرس الظواهر الطبيعية . ذلك أنه لم يهتم بفلسفة أرسطو التى نقلها العرب ، ولا بالمنطق الذى ظن الأوروبيون فى عصره أنه العلم النهائى الكامل ؛ وإنما وجه عنايته إلى المحاولات التجريبية الأولى التى قام بها بعض علماء العرب فى علم الكيمياء وفى فنونهم الأخرى . فقام ينادى فى أشد عصور الجهل حلكة فى أوروبا بأن الحقائق العلمية لا يمكن أن تأتى من مصدر آخر سوى الملاحظة والتجربة ؛ لأن التجربة تكفى نفسها بنفسها ، فى حين أنه لا قيمة للحقائق المنطقية إلا إذا كانت مطابقة للواقع ، ولا للآراء الدينية إلا إذا كانت على وفاق مع العقل .

وقد اختمرت فكرته هذه عدة قرون فى عقول أهل أوروبا ، ثم ازدهرت فجأة بعد طور اختمارها ، فكانت تلك النهضة العلمية الكبرى التى حمل لواءها فرنسوا بيكون وجاليلى ونيوتن وآخرون كثيرون ، والتى آتت ثمارها فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، والتى تنبىء بأن أمامها أفاقاً يكلّ

الخيال عن الإحاطة بها ؛ فإن الكشوف العلمية التى اهتدى إليها العلماء منذ القرن السادس عشر حتى الآن توحى إلينا أن العلم لم يدرك بعدُ غاية تطوره .

وقد نمت هذه العلوم فى أوروبا وأدت إلى نتائجها العظيمة التى نلمسها فى الفارق الكبير بين حضارتهم وتأخرنا ، وقوتهم وضعفنا ، وعلمهم وجهلنا . ومع أننا نتتلمذ الآن على الغرب فى كل شىء يتصل بالحياة العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية فإن علماء الدين عندنا ظلوا ، حتى أواخر القرن الماضى ، يحاربون العلوم الرياضية والطبيعية ، ويصفون الداعى إلى دراستها بالكفر والزندقة . ومن يدرى فلعل بقية من علماء هذا العصر تصر على عداء هذه العلوم ، وترى فيها خطراً على الدين ، فإذا هى أكرهت على تدريسها فى معاهدها شوهتها أو اكتفت بفشورها اعتزازاً بالقديم وأهله ، أو عجزاً عن فهم الجديد ومتابعته ؟

إنهم يخافون العلم الحديث ، ويقولون إنه قد يوشك أن يفسد على الناس عقائدهم . غير أن هذا ليس بمسلك الدفاع عن العقيدة الحقة ؛ لأن العقيدة التى تؤثر الحياة فى ظلام الجهل والجمود ، وتخشى أضواء العلم ، لا يمكن أن يقول أصحابها إنها أسلم العقائد وأقربها إلى العقل . إنهم يسيئون الدفاع عن عقائدهم ويرمون دينهم بما ليس فيه ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم حفظته وحمَته . ولو أنهم فطنوا إلى حقيقة دينهم لعلموا ، كما يقول جمال الدين : « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية . فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المتدينين برداء العلماء حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون ، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيقى خصوصاً فى الكليات . »

هذا إلى أن محاربة العلم دليل قاطع على جهل هؤلاء العلماء . فإن تقدم العلوم الحديثة فى أوروبا صرف كثيرا من الطبقة المتعلمة فيها عن عقائدها ، فأصبحوا أقرب إلى الإيمان بإله واحد . وأكثر استعداداً لقبول دين عقلى يحض على البحث النظرى ويتسع صدره للدراسات العلمية والفلسفية . فإذا ألقوا ببصرهم نحو الإسلام فأهم الطابع العقلى الذى تتسم به عقائده البديهية ، فظنوا أنه الدين الذى يبحثون عنه . لكنهم متى رأوا حال أهله وخاصة علماء الدين منهم ، وعرفوا عن هؤلاء موقفهم من العلم ، لم يجدوا ما يحفزهم إلى الإيمان بهذا الدين الذى يحارب أتباعه العلوم باسمه ؛ بل ذهب رينان إلى القول بأن أوروبا لم تفد شيئاً من الثقافة الإسلامية وما حملته إليها من فلسفة اليونان ؛ فإنهم نقلوا إليها هذه الفلسفة مشوهة ومحرفة . ومع ذلك فإنه يعترف بأن دينهم يحتوى على مثل عليا رفيعة كثيراً ما حببت إليه التفكير فى اعتناق الإسلام ، غير أن أهله يعتقدون أن البحث فى العلم نوع من الكفر . وهذا هو ماصرفه عن اعتناق هذا الدين لما حسب أنه يناهض العلم والفكر . ونرى من جانبنا أن مسلك علماء المسلمين الجهال تجاه العلم فى عصور التدهور ربما كان أحد الأسباب التى دفعت رينان إلى هذا الغلو .

والعلماء المتأخرون أكثر وزراً من سابقيهم الذين يقلدونهم فى عدائهم للمعرفة العلمية الدنيوية ؛ لأنهم يعيشون فى عصر النهضة العلمية الكبرى، ثم لا يرون ضرورة الاطلاع عليها فضلا عن المساهمة بنصيب فيها. وكان من اليسير عليهم، لو شاؤا ، ألا يقابلوا هذه النهضة بروح الريب، وألا يقفوا منها موقف الحذر؛ بل كان أولى بهم أن يتخذوا منها فى الأقل موقف الحيادالمشرب بروح المودة أولا ، لكى يفقهوا بعد قليل أنها لا تعارض الدين ؛ بل تؤكد عقائده .

ولقد عرف جمال الدين ذلك من رجال الدين الرسميين ، فنصح السلطان عبد الحميد ألا يثق بهم ، فيرسل نفراً منهم إلى اليابان لنشر الإسلام فيه ؛ إذ كان يخشى ، وربما كان محقاً فى خشيته ، أن يعطى هؤلاء العلماء فكرة مشوهة عن دينهم لليابانيين ، ومع ذلك يصرّ علماء الدين على أنهم يفهمون دينهم حق الفهم ، ويرون أن الخير كل الخير فى أن يظل طلبة العلوم الدينية بمعزل عن الحركة العلمية . وغاب عنهم أنهم كلما أعرضوا عن معرفة العلوم الدنيوية كانوا أبعد عن معرفة علوم الدين معرفة صادقة ؛ كذلك خفى عنهم أنهم لو فهموا الدين فهما حقاً لتوسعوا فى العلوم الكونية .

وهذا هو ما فعله علماء المسلمين فى العصور الأولى ، وهذا هو ما ألح فى بيانه أكبر فلاسفتهم ، ونعنى به ابن رشد ، عندما بيّن أن الشريعة والفلسفة أختان رضيعتان متحابتان بالطبع ، وأن الحقيقة واحدة يأتى بها الوحى بجملة ويعمل العلم على تفصيلها ، وأن من يحارب العلم والفلسفة باسم الدين رجل يجهل الدين ، ومن يناهض الدين تحت ستار الفلسفة رجل يجهل حقيقة الفلسفة . كذلك غاب عن أعين المتأخرين أن مما يختلف به دينهم عن الأديان الأخرى أنه لا يتضح فى أذهان معتنقيه إلا إذا تقدموا فى معرفة الحقائق العلمية ؛ فى حين أن أتباع بعض الديانات يبتعدون من العلم بمقدار احترامهم وحرصهم على عقائدهم ، ويقتربون منه بمقدار انصرافهم عن الإيمان بهذه العقائد .

غير أن المسلمين انتهى بهم انحطاطهم إلى أن كرهوا العلم عندما تولى شئونهم جهالهم ، وتصدر للوعظ فيهم ضلالهم . وفى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم ، لجهله بدينه ، أن يرمى الآخر بالمروق لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا

منه غلواً فيه بالباطل، ودخل العلم والفكر والنظر فى جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه . »[١]

و — يجهلون الدين أيضاً :

هذا هو موقف العلماء الرسميين من العلوم الكونية . أما العلوم الشرعية التى يزهون بأنها وقف عليهم ، وأنها ميدانهم الذى يجولون فيه ويصولون ، فلم تكن أسعد حظاً من العلوم الأخرى . ذلك أن هؤلاء العلماء لم يكونوا على وفاق فيما بينهم ، ولا سيما بعد أن تسربت إليهم روح الجدل التى فرقت بين علماء الكلام من قبل . فذهب القوم إلى أن كثرة التفريع والتقسيم وتخيّل جميع الحالات الممكنة وغير الممكنة دليل على عمق المعرفة وطول الباع فى الإحاطة بكل شىء .

ولم يكن هذا التفريع والتقسيم ليتم دون صراع وجدال بين أنصار مدارس الفقه المختلفة . ومن الحق أن نعترف أن الفقهاء بذلوا جهوداً كبيرة ، غير أنها جهود بذلت فى غير وجهها ، وفى غير ما يعود على أصحابها وعلى الناس بالخير . ولو أنها صرفت فى توضيح أصول الدين ، وتقريبها إلى أذهان العامة فى صورة هينة يسيرة تخلو من الجدل والخلاف لثبّتت العقائد السليمة، ولساعدت على نشر الأخلاق والآداب ، ولما اضطر الناس إلى مخالفة الدين بسبب جهلهم لأحكامهم ، واختلاف علمائهم فى تقرير هذه الأحكام . وربما أمكن تلمس العذر للرجل العادى الذى يخالف الشرع بسبب عجزه عن فهم نصوص كتب أهل الجدل من الفقهاء ،وذلك لصعوبة

(١) الإسلام والنصرانية لمحمد عبده ص ١٥٠ .

عباراتها وكثرة الخلاف فيها ـ نقول لو بذلت هذه الجهود فى وجهها الحق لما انحدر المسلمون إلى ما انحدروا إليه بفضل هؤلاء العلماء الذين يظنون أن العلم معناه تكفير الخصم ؛ لأنه لا يرى رأيهم فيما اعتادوه من التشدد فى الدين وجعله عبئاً ثقيلا مع أن الدين يسر فى أصله ومنبعه . ولو أطلعت على بعض كتب المتأخرين من الفقهاء لوجدت فيها شيئاً كثيراً « من مطاعن بعضهم فى بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذين يُنسبون إليه : يضلل بعضهم بعضاً ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ، ولكنه الجمود قد يؤدى إلى الجحود.»[1]

وهل لأحد أن يلوم العامة، إذا رأت هذا الخلاف ومثل هذا السباب ، على أنها تتلمس لنفسها الأعذار فى مخالفة أحكام الشريعة ما دام العلماء على غير وفاق فيما بينهم ؟ إنها تنحدر نحو الحلول التى تتفق مع أهوائها معللة النفس بأنه من الممكن أن يكون هناك من الفقهاء من يرى رأيها .

على أن علماء العصر قد لا يكونون أحسن حالا من العامة فى فهم الأحكام الدينية ؛ إذ لو اطلع الواحد منهم على الكتب التى أُلّفت فى عصور التقليد والجمود والشقاق والجدل، ليعلم حكم الشريعة فى مسألة من المسائل، لضلت به السبل ، لكثرة ما يلقى فى طريقه من اعتراضات وردود وتسفيه آراء وطعن فى عقيدة المخالف . أما الحكم نفسه فقد يجد له احتمالات عديدة لايدرى أيها يختار ؛ هذا إلى أنه قد يعجز عن تمييز الحلول بعضها من بعض . ويضرب لنا الإمام محمد عبده مثالا لهذه الفوضى فى كتب المتقدمين فيقول إنه قرأ أكثر من عشرين شرحاً ليعرف رأى القوم فى التيمم فوجدها كلها

(١) المصدر السابق ١١٩ .

غامضة مشوهة ، وأن النص القرآنى واضح ليس فى حاجة إلى كل هذه الشروح . وسنضرب نحن أمثلة عديدة سيعجب المرء كيف كانت موضع تفكير المحققين من رجال الفقه . فما بالك إذن بعامة الشعب ممن لا يستطيعون الخروج بشىء من مثل هذا الاختلافات التى لا تقف عند حد ؟ إنهم يريدون حكم الدين فى أمر من أمورهم فلا يجدون أمامهم سوى علمائهم . وربما لم يكن المسئول بأعلم من السائل ؛ إذ يتفق لبعض ، أو لكثير من هؤلاء الذين يتصدون لتطبيق أحكام الشريعة أن يعجز عن تقـــرير الحكم الصحيح : إما جهلا ، وإما عجزا عن تفهيم من يسأله ؛ وربما كان له فى ذلك بعض العذر ؛ لأنه يعتمد على مراجع ومصادر متناقضة متنافرة يكاد يعد الوصول إلى وجه الحق فيها أمرا مستحيلا .

ويمكن إرجاع فساد أخلاق العامة فى القرى والمساكر الإسلامية إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس ، أو يميزون لهم بين الحق والباطل والحرام والحلال . إنهم حسنو النية من غير شك ، ولكنهم ضحية التقليد والجمود ؛ وهم يفتون بقدر ما يعلمون ، وربما كانوا لا يعلمون شيئاً كثيرا . على أنه يتفق لحسن النية أن يتزلق إلى الشر عفواً أو قصداً ، وأن يتخذ الدين وسيلة إلى طلب السعة فى الرزق بدلا من أن يكون سبيله إلى تقويم الخلق وبذل العون والنصح ؛ ويتفق أيضاً أن يشغل فقهاء القرى أنفسهم بأعمال السحر والشعوذة ، يفرقون بين المرء وزوجه ، ويسعون بين الناس بالباطل ، ويضلون العامة بدلا من أن يتركوها تتبع فطرتها السليمة . ويسيطر هؤلاء الفقهاء على النفوس ويقومون سداً بينها وبين أهل العلم الصحيح ممن يستطيعون إرشادها إلى أمور دينها ،

ويبثون فيها أخلاقه ويرتفعون بها عن هذا المستوى الذى نزل بها إليه جماعة ممن لا علم لهم بالدين والأخلاق ، وممن يغرسون فى عقول النشء أسوأ الغرس ، أو يصرفونهم عن الدين بسبب مسلكهم الذى يتنافى مع أبسط قواعده ، وهى الرغبة فى الخير ، والدعوة إليه فى رفق وغير عنف .

وقد اضطربت معايير الأخلاق بسبب هؤلاء العلماء الجهال حتى أصبح إرشاد الناس إلى الفضيلة والحق ، وزجرهم عن الرذيلة والباطل ، من أشق الأمور وأقلها ثمرة .(١) وكيف يجدى النصح فى قوم نكبوا بجماعة من المضللين الذين يثبطون الهمم ، ويصرفون الناس عن الشكوى من الظلم ؛ بل يدفعونهم إلى قبوله دفعاً بحجة التسليم للقضاء والقدر ، ويشوهون عقولهم بسيل من الخرافات والأوهام التى تسرى مسرى السم فى خيالهم لجهلهم وسذاجتهم .

وهكذا انصرف الفقهاء عن واجبهم الأول ورضوا لأنفسهم أن يقفوا موقف الجمود والتقليد ، ثم أرادوا أن يخلعوا على ثقافتهم المحدودة طابع القداسة ، وأن يوهموا الناس أنهم حووا علوم الأولين والآخرين ، فنادوا بأن باب الاجتهاد فى الدين قد أوصد ، وأن هؤلاء الذين يحاولون التجديد فى أحكام الشريعة حتى تكون موافقة للتطور الاجتماعى جماعة من الكفرة ؛ بل ربما رموا هؤلاء الذين يرون ضرورة العودة إلى رأى السلف بأنهم قد مرقوا من الدين . وقد روى لنا الشيخ محمد عبده كيف أن أحد هؤلاء المجتهدين ، وهو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى ، نشر مقالا عرض فيه للصوفية ،

---

(١) قال أبو العلاء : كم توعظون فلا تلين قلوبكم فتبارك الخلاق ما أعتاكم ؛

وبيّن فيه أن هذا المذهب كان نكبة على الإسلام ، فلما أطلع الناس على مقاله فى مصر « هاج عليه حملة العمائم . . . وقالوا إنه مرق من الدين . . . ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض عليه ، وألقاه فى السجن . فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه . . . فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ، ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين . . . »[١]

كذلك روى لنا قصة الشيخ عليش الكبير مع الشيخ السنوسى الذى وضع كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية لأنه كان قد اعتمد فى تقرير أحكامه على الكتاب والسنة مباشرة . فلما ترامى النبأ إلى الشيخ عليش ، وهو من هو فى شدة تعصبه للدين بمعناه الضيق الذى كان يفهمه كما يقول الأستاذ أحمد أمين ، حمل حربة وذهب يبحث عن الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين . ولكن سفر السنوسى قبل أن يلقاه الشيخ عليش حال دون وقوع هذه الجريمة النكراء باسم الشريعة الغراء .

وليس علماء الدين الرسميون فى مصر هم وحدهم الذين كانوا يقفون فى طريق الإصلاح ، ويناضلون عن التقليد ، ويحرّمون تدريس العلوم الحديثة باسم الدين ؛ بل إنهم كانوا يسلكون مسلك أقرانهم فى مختلف البلاد الإسلامية سواء فى الأفغانستان أم الهند أم إيران أم بلاد المغرب ، حيث كان هؤلاء العلماء يعلنون الحرب على كل من حاول أن يزحزهم إصبعاً عما كان عليه

(١) الاسلام والنصرانية لمحمد عبده ص ١٠٣ — ١٠٤

سلفهم ، وإن كان فى البقاء عليه تلفهم .

وقد تساءل الإمام محمد عبده فقال : « هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم . . . ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصاً عند ما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى الاعتبارات ، فلو أخذ مسلماً من شاطىء الأطلانطيق ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وإن نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار . »

فإذا كان هذا هو رأى محمد عبده فى علماء المسلمين فى العصور الأخيرة ، فهل لأحد أن يعيب على ريتان إذا تشابه الأمر عليه ، فسوى بين الإسلام والمسلمين ، وظن أن هذا الدين يحارب العقل والعلم حقيقة ، وأن كل من يؤمن به يسلك مسلك التقليد ، أى ينهل من مناهل الجمود ؟ وهل لنا أن ننفى عن علمائنا الرسميين روح العداء للعلم ، أو ننكر عليهم رغبتهم فى فرض ثقافتهم التى ازدهرت فى عصور الانحطاط الفكرى على عقول تتابع الحركة العلمية المعاصرة ، وتتوق إلى أن ترى تجديداً فى الدراسات الدينية ، يخرج بها عن المناقشات اللفظية العقيمة ، ويبعث فيها تلك الروح التى عرفها السلف فى دينهم ، والتى حجبتها سحب الجهل أو التظاهر بالمعرفة ؟

هـ — ماذا جنى المسلمون منهم ؟ :

والحق أن البلاء الذى وقع بالمسلمين بسبب علمائهم فى الناحية السياسية لا يكاد يعدله إلا نكبتهم بهم فى الناحية الدينية . فإن هؤلاء العلماء ساهموا

فى تثبيت قواعد الاستبداد السياسى ، وساعدوا قدر طاقتهم فى طبع النفوس بطابع الذل والاستسلام للحاكم الزمنى ، وجعلوا طغيانه وعدوانه أمراً مشروعا وقضاء من الله ، ثم أكملوا القضاء على الروح الإسلامية عند ما قصروا فى أداء واجبهم الأول وهو إصلاح النفوس وتهذيبها وإرشادها إلى العقائد الصحيحة والأخلاق السامية التى جاء بها هذا الدين الحنيف . ذلك أن المشتغلين بالفقه أرادوا ألا يكونوا أقصر باعا أو أقل شهرة من رجال علم الكلام أو الجدل فى العقائد ، فجعلوا يتوسعون فى أحكام الشرع ، ويفرعون فيها ، كما يحلو لهم ، وكما تمليه عليهم خواطرهم السليمة أو المريضة ، فيضعون لكل حادثة حقيقية أو مستحيلة حكما خاصاً بها ، وإن لم تكن فى حاجة إليه . وليتهم اتفقوا على هذه الأحكام ، ولكنهم اختلفوا ، وصار يرمى بعضهم بعضاً بالكفر ، على غرار ما كان يفعل علماء الكلام من قبل . ولما ضاق الناس بخلافهم ، وعميت أبصارهم عن النهج الصحيح لم يجدوا مفراً من الركون إلى التقليد ؛ كل يقلد إماماً من الأئمة . وتعددت المذاهب واختلفت المناهج ، وألفت الكتب ، وحوت الغث والثمين ، والحق والباطل ، وجاء من بعد هؤلاء المؤلفين خلف يحسن الظن بكل ما جاء فى كتبهم ؛ إذ وجد أن التقليد أيسر من الاجتهاد ، والتسليم بما قال أحد السابقين أهون من تحكيم العقل واستئناف مشقة البحث .

ولما رأى المتأخرون مدى الاختلاف بين السابقين أخذوا يبررون هذا الاختلاف بأنه رحمة بالعامة ، كما وجدوا فيه سبيلا إلى التحايل على أحكام الشرع ، حتى ذهب بعضهم فى تحايله إلى ما لا يقره الخلق ولا الدين ، كأن يهب الرجل ماله لأحد ممن يثق بهم حتى إذا حال الحول استعاده كاملا ،

دون أن يخرج منه شيئاً مما يجب شرعا على الأغنياء للفقراء . كذلك أحلوا للرجل أن يهب زوجته التى طلقها ثلاث طلقات إلى من يشاء ، حتى يستطيع ضمها إليه ، بعد أن يقوم الوسيط أولا يقوم بمهمة المحلل . أما من يريد أن يقرض شيئاً من ماله بالربا ، دون أن يقع تحت طائلة العقاب ، فله أن يبيع لمن يقترض منه شيئاً خسيساً بشىء ذى قيمة يرده إليه مع ماله الذى أقرضه ؛ إلى غير ذلك من الحيل التى ربّما كان يعلمها بعض الفقهاء أكثر من معرفتهم بفرائض الدين وآدابه ، والتى يهرع إليها العامة للتخلص من أحكام الشرع .

ومن جانب آخر أغرب بعض الفقهاء فى استنباط الأحكام من النصوص إغراباً شديداً . ذلك أن أحدهم متى وجد نصاً من النصوص الشرعية يتضمن أمراً أو نهياً فهمه أولا حسبما يؤديه إليه عقله ، ثم حاول تطبيقه على أمثال الحادثة التى ورد فيها ؛ وقد لا يكون بين هذه وبين الحالات التى يماثل بينها شبه ما ، لكنه يأبى إلا أن يجتهد على غير علم أو بصيرة ؛ لأنه يصر على أن يجد لكل حادثة من حوادث الحياة اليومية حكما شرعياً إما بالوجوب وإما بالتحريم ، ولو كانت مما سكت عنه الشرع . ومن البديهى أن ينتهى الأمر بأن تصير كل الأشياء ، حتى توافهها وسفسافها محرمة أو واجبة ، وأن تختفى الأشياء المباحة التى يستطيع المرء أن يقربها أو يتركها ، دون أن يكون سيف الفقهاء مصلتاً على عنقه .

وقد تتعارض أحكام الفقهاء السابقين فى مسألة من المسائل فيرى المتعنت من المتأخرين أن يلزم أشد الأحكام عسراً ؛ لأنه يريد أن يأخذ بالأحوط ، طلباً للمثوبة كما يقول . وهكذا تمادى المتأخرون فى التنطع والتشدد ،

حتى أصبح الدين اليسر عبئاً ثقيلا لايدع صغيرة أو كبيرة من الأفعال العادية إلا وقرّر لها حكما . وكثيراً ما يكون هذا الحكم مضاداً للعقل وللطبيعة . ولكن هكذا شاء الفقهاء ، فعلى العامة أن تتبعهم فى تشددهم ، وتكلّفهم العناء فيما لاموجب لطلب العناء فيه ، وإلا حل بها من اللعنة فى الدنيا والآخرة مالا قِبلَ لها به . وظل الفقهاء يوغلون فى الدين ، برفق وبغير رفق ، حتى غلبهم وصرعهم ، وحتى أدت شدة الحرج التى يشعرون بها ، والقهر الذى يباشرونه على العقول، إلى تطلع فريق من المسلمين إلى من ينقذهم من عسف المتشددين ، وعنت المتصدرين للفتوى بينهم. وعندئذ لم يجد هذا الفريق أمامه من مهرب سوى أن يقذف بنفسه فى حلقات أهل التصوف الذين هوّنوا عليه أمر التكاليف ، وصرفوه عنها وعن تشدد الفقهاء ، إلى تلاوة التراتيل والترانيم وهز الأعطاف والتمايل على دق الطبول ونقر الدفوف ، فأصبح الدين لديه لهواً ولعباً وصفيراً وتصفيقاً بعد أن جعله الفقهاء أغلالا وقيوداً .

أما من لم تستهوه مباهج التصوف ، وكان فى خلقه شىء من الشدة والتزمت فقد رضى أن يظل فى حوزة الفقهاء ، وآثر أن يتبع سبيلهم ، ولو كلفوه بما لم يكلفه به الله ورسوله ، ولو أوجبوا عليه من النوافل والقربات أضعاف ما جاء به الكتاب من الفرائض . إنه يميل مثلهم إلى التشدد ويشعر شعورهم بالحرج ، ويرى رأيهم فى أن ماجاء به القرآن ليس كافياً فى نجاته . فيقبل على هذه النوافل إقبالا ربما أنساه الواجبات ؛ هذا والفقهاء المشرعون لا يكفون عن التشريع والتقنين وبسط أحكام الشريعة على كل ما يعترض طريقهم : فهم يأبون إلا أن يحددوا لكل عمل من الأعمال قيمته ، ولو كان من تلك الأعمال التى تركها الشرع مباحة للناس يأتون منها ما شاءوا وبالقدر

الذى يتفق مع حياتهم الاجتماعية التى تتطور دون انقطاع . ولم يعدم الفقهاء حجة لغلوهم وتشددهم فى الدين ، فهم يشعرون بضيق دونه أى ضيق فى أن يتركوا شيئاً من غير أن يبينوا فيه حكم الله ورسوله ، وهم يخافون على الناس أن يخلطوا بين الحرام والحلال ؛ كأن الدين كان ناقصا فجاؤا هم يكملونه .

وفى الواقع ليس ما يشعرون به من حرج وما يجنحون إليه من تشدد أو أخذ بالأحوط إلا وليد اضطرابهم فى الرأى وقصورهم فى الفهم ، وترددهم فى الجزم ؛ إذ أن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وما بعد ذلك فهو مباح للناس بدرجات متفاوتة . ومن قبل غلا أحبار اليهود وعلماؤهم ، وتشددوا فى الدين حتى فقـــد روحه ، وأصبح مجرد عبارات وطقوس معقدة إلى حد كبير أو قليل ، فحق للمسيح أن يأخذ عليهم تشددهم وتعنتهم ونفاقهم عند ما يهتمون بالظواهر المادية للدين ويغفلون عن لبه وجوهره . ومن قبل أيضا أفرط رجال الكهنوت من النصارى فى تشددهم فكلفوا الناس أن يذعنوا لأحكامهم ، وأن يتقبلوها بالسمع والطاعة دون مناقشة أو نظر ؛ بل بلغ من تشددهم وقهرهم أنهم حرموا على أتباعهم تلاوة الإنجيل أو الاستفسار عن عقائدهم ، وبخاصة عقيدة التثليث التى قالوا إن علمها عند آباء الكنيسة وحدهم ، مع أنها حجر الزاوية فى المسيحية .

كذلك زعم رجال الكهنوت فى النصرانية أن لرئيسهم الأكبر حق تقرير العقائد الجديدة وإدخالها فى صلب المسيحية ، وما على الناس إلا أن يتبعوه . فإذا قرر رئيسهم أن مريم العذراء قد رفعت إلى السماء ، مثل ابنها المسيح ، وجب أن يؤمن الأتباع بهذه العقيدة ، وألا يسألوا كيف أو متى رفعت ؛ وله أن يكرس القديسين وأن يخصص أنواعا من الصلاة للتقرب إلى الله

عن طريقهم . وهكذا تتخضم العقائد وتتطور وتزداد تعقيداً بمرور الزمن وبمشيئة رؤساء الدين وغفلة من يأتمون بهم .

ولقد رأيت فى إحدى مقاطعات فرنسا أن بعض الآباء الذين يقيمون فى أحد الأديرة فكروا فى وسيلة لجذب قلوب الناس ، فرأوا أن يقيموا على مقربة منهم مغارة تشبه إحدى المغارات المقدسة عندهم وهى مغارة « لورد » [Lourdes] التى يحج إليها المسيحيون من مختلف البقاع للتبرك بتمثال العذراء ولطلب الشفاء للمرضى ممن أعيا الأطباء علاجهم . ثم رسموا هذه المغارة على مثال مغارة « لورد » وبدأوا يقودون أتباعهم نحوها . وقد لاتمضى أجيال ، حتى يسمع الناس عن هذه المغارة نبأ عجيباً ، إذ ربما قيل إنها مهبط لأحد القديسين فى سالف الأزمان .

وبمثل هذا التشدد والتعقيد يبسط رجال الكهنوت سلطانهم فى كل ملة . ونحن لا نبرىء فقهاء المسلمين وعلماء الدين فيهم من أمثال هذه الأعمال . فمن يدرى من يرقد فى أضرحة كثير من أولياء المسلمين فى المدن والقرى . فلربما كانت تضم رفات رجال ورعين ؛ لكن ربما ضمت أيضا رفات قطاع طرق ، أو بعض جثث الحيوانات ؛ ثم يحج الناس إليها ، ويقدمون إليها القرابين ، ويجودون عليها بالنذور ويبتهلون إلى سكانها أن تكون فى عونهم ، كأنما يئسوا من روح الله .

* * *

أما التشدد والتعقيد فى الأمور التفصيلية التافهة فأكثر من أن يدخل حتى حصر . وكتب الفقه لاتضن علينا بأمثلة غريبة تخيلها المتشددون ، ووضعوا لها الحلول التى لا تقل عنها غرابة . وليتهم اتفقوا فيما بينهم على حل واحد

لكل مسألة ؛ إذ لو فعلوا لأراحوا أنفسهم وأراحوا الناس معهم . لكنهم اختلفوا فى المذهب الواحد فما بالك بالخلاف الذى يمكن أن يقع بين المذاهب المختلفة ؟ وليس من غرضنا أن نتعقب الفقهاء فى أمثلتهم العجيبة ، رغبة فى التندر بهم أو التشنيع عليهم . فإن هذا الكتاب لا يتسع لمثل هذا المسلك . أضف إلى ذلك أن السخرية والتهكم فى مثل هذه الأحوال لا يحققان الهدف الذى نرمى إليه ؛ بل ربما انتهيا إلى نتيجة أخرى غير تلك التى نريد الوصول إليها . وقد كان فى وسعنا ، لو شئنا ، أن نذكر أمثلة لا حصر لها للتدليل على تشدد الفقهاء وتعنتهم ، وأن نختار أكثر الأمثلة إغراباً فى السقم ؛ لكننا آثرنا أن نعرض لبعض الأمثلة اليسيرة ، وفى بعض المسائل المحدّدة ، لعل المشتغلين بالفقه يتجهون من تلقاء أنفسهم وبقلوب راضية إلى تطهير كتبهم مما يشوهها ! وهذا ما ارتضيناه فى كتاب آخر لنا عندما بينا كيف انتهى علماء الكلام إلى الابتعاد عن روح الكتاب العزيز بأدلتهم الجدلية ، حتى أصبحت العقيدة الواضحة شديدة الغموض فى كتبهم.(١)

أما فى مجال الفقه أو التشريع فإنا نشير إلى مسألة الطلاق التى عالجها الفقهاء من أوجهة اللفظية أو الشكلية الصرفة ، ونسوا ، فى أثناء خلافهم وسيل حججهم ، أن الطلاق يمس ناحية إنسانية أو اجتماعية هامة ، فعالجوها كما لو كانت من مسائل المنطق الصورى ، ونعنى به منطق أرسطو كما فهمه المسلمون ، ذلك المنطق الذى يبحث فى جميع الحالات الممكنة وإن لم تقع بالفعل ، وهو المنطق الذى نعتقد أنه أفسد على المسلمين علومهم اللغوية

---

(١) هذا ما بيناه بالتفصيل فى مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام التى صدرنا بها كتاب مناهج الأدلة لابن رشد . ولذلك نحيل عليها فى كل ما يتصل بعقم المناقشات الكلامية .

والشرعية ، كما أفسد عليهم ثقافتهم وحضارتهم [١] ـ نقول إنهم حاولوا تطبيق قواعد المنطق وقوانين اللغة على العبارات التى تصدر من الرجل فى غضبه أو فى رضاه ، وغفلوا عن هذا الأمر وهو أن فصم رباط الزوجية ينبغى ألا يكون بمثل هذا اليسر ، وخاصة بعد أن حدّد لهم القرآن الكريم ، الذى كان ينبغى أن يظل مرجعهم الأول ، المبادىء العامة التى يجب أن تحوط الحياة الزوجية بسياج قوى ، حتى تكون بمأمن من سفه الزوجين أو تلك الأزمات الطائشة التى تعترض حياة الأسرة ، فتوشك أن تلحق الضرر بمن لا ذنب له ، ونعنى بهم الأطفال الذين قلّ أن نظر إليهم الفقهاء بعين المودة فى أثناء جدلهم واختلافهم فى الحلول .

ونقول إن هؤلاء المشرعين الذين يؤكدون لنا أنهم يسيرون على هدى القرآن فى تشريعاتهم ينسون أن هذا الكتاب لا يريد أن يكون الطلاق سلاحا يسلّطه الرجل على عنق المرأة ، وبغير حق فى أعظم الأحوال . فهو ينهى الناس عن كثرة الأيمان والأقسام التى يذكر فيها اسم الله أو لا يذكر فيها اسمه . ولذلك قال تعالى فى التمهيد للحديث عن الطلاق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ، لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » . وإنما نهى عن كثرة إيقاع الأيمان لأن هؤلاء الذى يكثرون من الأحلاف هم هؤلاء الذين وصفهم الله بالمهانة عندما قال فى كتابه:

---

(١) بينا فى كتابنا « المنطق الحديث ومناهج البحث » أن الحركة العلمية الحديثة لم تزدهر إلا بعد القضاء على المنطق الشكلى ، كما كان يفهمه أهل العصور الوسطى من المسلمين والمسيحيين على حد سواء . انظر ص ١٥ إلى ص ٣٠ ، من الطبعة الثانية .

« ولا تطع كل حلاف مهين » . ذلك أن الحلاف لا يكون عادة إلا كاذباً .

وهكذا نسى الفقهاء أن الله لا يرضى أن يتخذ اسمه سبيلا إلى إلحاق الضرر بالنساء كأن يقسم الرجل ألا يقرب زوجته أربعة أشهر . فإذا فعل رغم ما فى ذلك من الإجحاف بالزوجة التى أوصى الله بحسن معاملتها أوجب الله الطلاق بعد مرور هذه المدة التى تقطع صلة التواد والتراحم بين الزوجين . لكنه أوجبه بالنسبة إلى النساء اللاتى ما زلن يصلحن للزواج بدليل أن الآية خاصة بذوات الحيض.(١) لذلك ذهب بعض المجتهدين إلى أنه لا يجوز طلاق المرأة التى بلغت سن اليأس « فإن اليائسة من شأنها ألا تطلق لأن من أمضى زمن الزوجية مع امرأة حتى يئست من المحيض كان من مقتضى الطبع والفطرة ومن أدب الشرع والدين أن يحفظ عهدها ، ويرعى ودّها بإبقائها على عصمة الزوجية ، وإن كان بعض السفهاء لا يحترمون تلك العشرة الطويلة ، ولا يراعون ذلك الميثاق الغليظ فيقدمون على طلاق اليائسة ، ثم إن اليائسة ، إذا طلقت فلا تكاد تتزوج ، وما خرج عن مقتضى الشرع واستقامة الطبع فلا يعتد به . »(٢)

فالشريعة الإسلامية كما يقررها القرآن لا تجعل الطلاق لهواً ولعباً ، ولا تجعله أداة عمياء فى أيدى السفهاء ، أو مجرد كلمة تقال فى ساعة غضب فتقضى على أسرة بأكملها أو تجرّد امرأة يائسة من كل مقومات حياتها ؛

---

(١) للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء الآية : سورة البقرة ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٢) هذا هو رأى الإمام محمد عبده — تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧٠ .

بل إن الكتاب الكريم ينصح بإرسال أهل الخير للسعى بالصلح بين الزوجين اللذين يمكن طلاقهما ، وذلك إذا دبّت النفرة . فإن الله تعالى يقول:« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » ولم يقل وإن يريدا طلاقا لأن أبغض الحلال إلى الله هو الطلاق . والشرع لا يبيح الطلاق إلا إذا استنفدت جميع الوسائل الأخرى ؛ لأنه جعل للرجل حق تأديب امرأته فى غير عسف بالهجر فى المضاجع والضرب الهين ، حتى إذا بدا ألا سبيل إلى تقويمها عن طريق الصلح أو التأديب جعل للزوج أن يسرحها سراحا جميلا . ثم أعطى للزوجين فرصة للتفكير فى العودة إلى الصفاء والحياة المشتركة ، فحدد الطلاق بمرتين ، يحق للزوج فيها أن يراجع زوجه . فإذا تبين بعد ذلك كله أن مثل هذه الحياة لا يمكن أن تطاق أباح الطلاق مرة ثالثة وأخيرة ، لاتعود المرأة بعدها إلى زوجها إلا إذا تزوجت رجلا آخر ، حتى يعلما أن الطلاق ليس لعباً ولا لهوا .

فالنصوص القرآنية واضحة فى تحديد الطلاق ، وهى تتجه إلى كل ذى عقل، أى إلى هؤلاء الذين يحق تكليفهم بدين من الأديان ، وهى - كما نرى - لا تتسع لما درج عليه المسلمون من أن يأتى الرجل منهم فيوقع الطلاق على امرأته طلقتين أو ثلاثا - كما يبرّر له الفقهاء - وربما دون مبرّر أو موجب، أو لأمر لا يتصل بالحياة الزوجية من قريب أو بعيد . فيقال له بعد ذلك إن امرأته طالق ثنتين أو ثلاثة ، مع أن العقل والطبع لا يبرّران فصم رباط الأسرة بمثل هذا الجور أو الحمق .

وهذا هو ما كان يسير عليه المسلمون فى عهد الرسول فلقد روى النسائى

قال : « أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ، ثم قال : « أيُلعَب بكتاب الله وأنا بين أظهُركم ؟ » أى أن الرغبة فى التلاعب فى الطلاق وفى إلحاق الضرر بالمرأة أمر قديم .(١)

ومع وضوح نصوص القرآن فإن الفقهاء نسوا ذلك الوضوح ، كما نسوا غضبة الرسول من هؤلاء الذين يتلاعبون بالقرآن . فأخذوا يشرعون لهؤلاء الذين وصفهم محمد عبده قبلنا بأنهم هم السفهاء من الناس : وجعلوا يغربون فى أحكام الطلاق إغراباً لاحدّ له . ذلك أنهم أبوا إلا أن يفرعوا فى البحث ، وإلا أن يفرطوا فى الجدل ، حتى لا يكونوا أقل نصيباً فى العلم من زملائهم من أهل الجدل فى العقائد ، وهذا هو منشأ تلك المسائل العديدة التى حجبت المبادىء التشريعية الجليلة التى حدّدها القرآن وأكدها الرسول ، تلك المبادىء التى كان ينبغى للمسلمين أن يلتزموها للفصل فى مشاكل الطلاق. لكن هذه المبادىء احتجبت خلف ستار من اللجج والجدل الذى فتح الطريق واسعة أمام صيغ الطلاق المتخيلة وغير المتخيلة ، والتى جعلت الفراق بين الزوجين أمراً يترتب على سفه الزوج أو حمقه أو تلاعبه بالألفاظ .

فإذا نحن انتقلنا من تلك المبادىء التشريعية السامية إلى التطبيق لدى الفقهاء وجدنا ، والحق يقال ، هبوطا فريدا فى التفكير على نحو يفجأ النّظر . مثال ذلك إذا قال رجل إنه إن شرب الماء الذى فى هذا الكوز اليوم فامرأته طالق ،

---

(١) كان طلاق الثلاث يقع طلقة واحدة فى عهد الرسول وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر . فلما رأى هذا الأخير أن القوم يشددون على أنفسهم شدد عليهم إذ قال : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ! فأمضاه عليهم .
تفسير المنار ج ٢ ص ٣٨٤ .

فما الحكم ؟ إن الأمر يتطلب تفصيلا : أيحتوى الكوز على ماء حقيقة أم لا يحتوى ؟ أما فى الحالة الأولى فقد اختلف الفقهاء ، فقال بعضهم لو أريق الماء قبل مجىء الليل لم يحنث الرجل فى يمينه وبقيت امرأته حلالا له ؛ وقال بعضهم إنه يحنث على كل حال ، أى أن امرأته تصبح محرمة عليه . أما فى الحالة الثانية فقد اتفقوا على أنه لا يحنث . ونعتقد أنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الرجل ؛ بل كان ينبغى لهم أن يقولوا بضرورة تعزيره أى عقابه ؛ لأنه يربط بين مصير أسرته وبين شرب الماء أو عدم شربه ، دون ما يوجب الربط بين هذين الأمرين .

ومثال آخر لهذا السفه الذى قد يقع فيه بعض الأزواج ، والذى يثير جدل الفقهاء ، وهو أن الرجل لو قال لزوجته : إن كنت تحبين أن يعذّبك الله فى نار جهنم فأنت طالق أو قال لها إن كنت تحبيننى فأنت طالق ، فقالت أحب أن أعذب فى النار أو أحبك ، فإنها تطلق . ولا ندرى ما الذى يدفع الرجل سليم العقل إلى استخدام هذه الصيغة حتى يطلق زوجته ! أو لم يكن له أن يبحث أولا أهناك ما يوجب الطلاق حقيقة ؟ وهل هناك من وسيلة للصلح إن وجدت بعض أسباب قد تدعو إلى الطلاق ؟ أم الأولى به ، وقد يئس من إصلاح أمره معها ، أن يسرّحها سراحا جميلا دون أن يعرض عليها عذاب النار حتى تتخلص منه ، أو يجازيها على حبها له بطلاقها ؟ ونقول مرة أخرى إنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الزوج الذى ينبغى توبيخه ولومه ، بدلا من التشريع له .

ولا ندرى لماذا أجهد الفقهاء أنفسهم لمثل هذا الرجل الذى كان يستطيع تجنب النسل عن طريق العزل ، لكنه لم يرتض ذلك لنفسه ؛ وإنما رضى

أن يقـــول لامرأته إذا ولدت غلاماً فأنت طالقة طلقة واحـدة ، أما إذا ولدت جارية فأنت طالق طلقتين . ثم أراد الله لهذه البائسة أن تلد غلاماً وجارية ، ثم لم يعلم الزوج - وكان فى وسعه أن يعلم - أيهما خرج إلى الحياة أولا ؟ لـكن الفقهاء رأوا أن يشرعوا له ؛ وأن يختلفوا فى التشريع له . (١)

كذلك اختلف المشرعون فيما بينهم فى أمر هذا الرجل الذى قال لزوجته : إن دخلت هذه الدار فأنت طالق ثلاثاً ، فلم تدخل ، ثم طلقها طلقتين ، ثم تزوجت زوجاً آخر ، ودخل بها ، ثم عادت إلى الأول ، فدخلت الدار فما الحكم ؟ قال بعضهم ، إنها تصبح مطلقة ثلاثاً ، وقال بعضهم : بل تطلق طلقة واحدة ، وقال بعضهم : لا تطلق لا طلقة واحدة ولا ثلاثاً ؛ لأن الزواج الثانى أبطل يمين الطلاق الذى وقع من الزوج الأول. (٢) ومن الأكيد أن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا جميعاً فى شىء واحد ، وهو أنهم أغفلوا آية الصلح بين الزوجين ، وآية التسريح بالإحسان .

ومن هذا القبيل أنهم اختلفوا فى أمر هذا الرجل الذى جال بخاطره ، وربما لغير سبب ، أن يقول لامرأته : طلق نفسك ثلاثاً إن شئت فطلقت واحدة ، فقال بعضهم لا يقع الطلاق ، وقال بعضهم : بل تقع طلقة واحدة . وعندئذ فليس لهذا العابث بأبغض الحلال إلى الله إلا أن يبقى فى الحيرة لأن المشرعين لم يجزموا له بما إذا كانت زوجته حلالا له أو حراماً عليه .

أما إذا كان من أهل المنطق أو من غير أهله ، وقال لزوجته « أنت طالق

---

(١) كتاب الهداية شرح بداية المبتدىء جـ ١ صفحة ٢٠٠ .

(٢) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٠١ .

ما لم أطلقك، أنت طالق ، فعندئذ يفتيه الفقهاء أن امرأته أصبحت مطلقة ؛ لأنه وجد زمان لم يطلقها فيه ،وإن قلّ ، وهو زمان قوله «أنت طالق » قبل أن يفرغ منها . (١)

وإذا طاب له أن يقول لزوجته أنا منك طالق فليهدأ نفساً ، ولو كان ناوياً للطلاق حقيقة ؛ ذلك لأن المرأة لا تملك الطلاق . لكن إذا قال لها أنا منك بائن ، أو أنا عليك حرام ، فهى طالق ؛ لأن البينونة ـ ومعناها قطع الصلة بين الزوجين ـ أمر مشترك بينهما .

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ فى احتمالات الطلاق (٢) : لو طلق الرجل من زوجته جزءا شائعاً مثل أن يقول لها أنت طالق نصفك أو ثلثك فهى طالق ؛ لأن الجزء الشائع ـ كما يقولون ـ محل لسائر التصرفات كالبيع وغيره . أما إذا قال لها يدك طالق أو رجلك طالق فقال بعضهم يقع الطلاق وقال آخر لا يقع ! !

وليس باب الطلاق وحده هو الذى يحفل بمثل هذه الاحتمالات ؛ بل نجد فى باب الأيمان شيئاً لا بأس به . مثال ذلك أن الرجل لو حلف

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) أمثلة أخرى: لو قال لها طلقى نفسك فقالت أبنت نفسى طلقت ، وإن قالت قد اخترت نفسى لم تطلق ، ولا دخل للنية هنا مطلقاً . نفس المصدر ج ١ ص ١٩٦ .

وإذا قال لأجنبية إن دخلت الدار فأنت طالق ثم تزوجها ، فدخلت الدار لم يقع عليها الطلاق نفس المصدر ج ١ ص ١٩٩ .

أما إذا قال لامرأة : يوم أتزوجك فأنت طالق، فتزوجها ليلا وقع عليها الطلاق ج١ ص١٨٦ . ولو قال لها طلقى نفسك من ثلاث ما شئت فلها أن تطلق نفسها واحدة أو ثنتين ولا تطلق ثلاثا ، وقال آخرون بل تطلق ثلاثاً إن شاءت . ص ١٩٨ الخ .وهناك أمثلة أخرى لم نر أن نستشهد بها نظرا لمجافاتها للذوق العام .

ألا يأكل لحماً فأكل لحم السمك فإنه لا يحنث فى يمينه ، أما إذا أكل لحم خنزير أو لحم إنسان فإنه يحنث؛ لأنه لحم حقيقى إلا أنه حرام . لكن إذا أكل كبدا أو كرشا فقيل يحنث فى يمينه وقيل لا يحنث . وإذا حلف ألا يأكل أو لا يشترى شحما فإنه لا يحنث إلا فى شحم البطن عند بعضهم ، وقال بعضهم إنه يحنث لو أكل شحم الظهر أيضاً. (١)

أما إذا أقسم ألا يأكل فاكهة ، ثم أكل عنباً أو رماناً أو رطباً أو قثاء أو خيارا لم يحنث ، وإن أكل تفاحا أو بطيخاً أو مشمشاً حنث عند بعض الفقهاء ، ولم يحنث عند أخرين(٢) . وإذا حلف ليصعدن إلى السماء أو ليقلبن هذا الحجر ذهباً ، فإنه ملزم بيمينه ، ويحنث فيها عقب التلفظ بها . لكن قال بعضهم لا يقع يمينه لأن ذلك أمر مستحيل عادة ، فأشبه المستحيل حقيقة ، وقال الأولون إنه يحنث فى يمينه « لأن الصعود إلى السماء ممكن حقيقة : ألا ترى أن الملائكة يصعدون إلى السماء ، وكذا تحوّل الحجر ذهباً بتحويل الله تعالى له . وإذا كان متصوراً ينعقد اليمين موجَباً لحلفه ، ثم يحنث بحكم العجز عادة . » (٣)

واختلف الفقهاء أيضاً فى أمر ذلك الرجل الذى نذر أن ينحرا بنه فى مقام إبراهيم ، فقال أحدهم: ينحر جزوراً ، وقال آخر : ينحر شاة ، وقال ثالث ينحر مائة من الأبل ، وقال رابع : يهدى ديته ، وقال خامس : بل يحج به ، وقال سادس وسابع : لا شىء عليه لأنه نذر معصية ولا نذر فى معصية .(٤)

---

(١) كتاب الهداية ج ٢ ص ٦٨ . (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٧١ .

(٤) كتاب بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣٤١ .

ونقول نحن إنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بكل حلاّف مهين يجعل الله عرضة لأيمانه . وكان الأجدر بهم أن يقرروا عقوبة التوبيخ أو التعزير لمثل هؤلاء الذين يعقدون أيمانهم فى معصية أو فى أمر مستحيل أو فى أمور تافهة تتصل بالطعام والشراب !

ومن أمثلة الغلو أو التشدد الذى لا موجب له حقيقة مسألة استخدام السواك . فإنه ورد عن الرسول عليه السلام أنه قال : لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك . ولو صح هذا الحديث لما دلّ على أكثر من إباحة استخدامه أو ندبه . ومع ذلك وجد فيه الفقهاء مجالا للاجتهاد ، بدلا من الاجتهاد فى أمر له خطره فى حياة المسلمين السياسية والاجتماعية ، فقال بعضهم إنه سنة ، وقال بعضهم يجب أن يكون السواك من عود الأراك ، وعمّم بعضهم فقال يجوز استخدام الإصبع أو غيره بشرط ألا يؤدى ذلك إلى إدماء اللثة . وتشدد آخرون فقالوا يجب ألا يكون السواك أقصر من شبر ، وإلا كان مخالفاً للسنة . وقال قوم إن السنة تقضى بألا تزيد فتحة السواك عن نصف الإبهام ، ولا يتجاوز سمكه عن غلظ إصبع . ثم افتن آخرون فى تحديد طريقة استخدامه ، فقالوا : إنه من السنة أن يبدأ المرء بإدخال السواك مبتلا فى الشدق الأيمن ثم يمر به على أسنانه ثلاث مرات ، ثم يبصق أو يتمضمض ، ثم يمر به ثلاث مرات أخرى ، ويبصق أو يتمضمض من جديد ، وهكذا تتوالى المرات والبصق والتمضمض . وهنا تساءل أحد هؤلاء المجتهدين فقال : أتكفى هذه المضمضة عن سنة المضمضة فى الوضوء أم لا تكفى ؟ فمن قال إنها لا تكفى استطاع أن يحتج بأن مضمضة الوضوء

تقتضى إمرار الماء بالحلق للغرغرة ، ولا يتحقق ذلك الأمر باستخدام السواك . ثم اختلفوا بعد ذلك فقالوا : كم مرة يستخدم السواك فى اليوم ؟ وهل يجب استخدامه عند كل وضوء أو عند تلاوة القرآن ؟ وبلغ من تشدد هؤلاء المشرعين أنهم جعلوا استخدام السواك نوعاً من التبرك والتقرب إلى الله . ثم إن بعض المشعوذين وجدوا فيه كثيراً من المزايا السحرية : منها إنه إذا وضع قائماً ركبه الشيطان . وقال آخرون إنه إذا ألقى أورث مستخدمه الجذام! وبفضل هذا التنطع والتعنت خفى على الناس حكم استخدام السواك . وبعد أن كان أمراً مستحباً كاد يصبح أساساً من أسس الشريعة ، أو حيلة من حيل السحر والشعوذة .

وأقل من هذا التشدد والتعنت ما وقع فيه بنو إسرائيل الذين شقوا على أنفسهم فشق الله عليهم ؛ كما جاء فى قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . »[1] فكان يكفيهم أن يذبحوا أية بقرة إلا أنهم أبوا إلا التنطع

---

(١) سورة البقرة من آية ٦٧ إلى آية ٧١ .

واللجج فى السؤال . فلما شدّدوا شدّد الله عليهم . (١)

لكن لنعد إلى فقهائنا وإلى كتبهم لنقول : إنّ من يبحث عن مثل أحكامهم الغريبة هذه سوف يجد منها ما يثير عجبه . لكن ليس فى غرضنا ـ كما قلنا ـ أن نفسح لها فى كتابنا أكثر من هذا المقدار الذى لم نحاول اختياره من أشد الأحكام غرابة . ومع هذا فإن تلك الكتب ما زالت موضع تبجيل وتقديس لدى المتأخرين ، يرجعون إليها كلما حزبهم الأمر ، أو كلما طُلب إليهم أن يقرروا حكم الشريعة فى كل ما يجد من الحوادث والأعمال . وقلما يجدون فيها شيئاً يتصل بما يراد معرفة حكم الشرع فيه ، فيتمحلون وجوه الشبه بين القديم والجديد ، ويقيسون أمراً على آخر ، ولا يفكرون مطلقاً فى أن يضعوا حكماً جديداً يعتمد على البحث والنظر العقلى ، ويتفق مع الحقائق العلمية التى تم الكشف عنها منذ ألّفت هذه الكتب التى تحجب ، أو تكاد تحجب ، عنهم كتاب الله وسنة رسوله .

فإذا قيل لهم إن تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية قد أدى إلى ظهور حالات جديدة لم يرد بشأنها نص فى كتب الفقهاء ، وإنه لابد من تقرير أحكام خاصة بها تلائم العصر وتوافق العقل أبوا إلا أن يقفوا موقف الجمود ، ومنعوا الاجتهاد فى تقرير أحكام شرعية لهذه الحالات الجديدة . ولو أجاز بعض المجتهدين فى عصرنا مشروعية التأمين على الحياة أو على البضائع أو على الدور ضد الحريق ، أو أفتى بجواز استثمار الأموال الراكدة عن طريق المصارف أو أحل قبول ربح ضئيل للأموال المودعة فى صناديق

(٢) راجع تفسير الإمام محمد عبده لهذه الآيات . تفسير المنار ج ١ ص ٣٥٠ .

التوفير ، أو أباح لبس القبعة فى أثناء الصيف هاج المقلدون الجامدون فرموه بالكفر . ولم لا يفعلون ؟ ألا يرون أن باب الاجتهاد قد سدّ ، وأن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوههم ؟ لكنهم يتظاهرون من الاجتهاد ستراً لعجزهم واحتماء وراء المتقدمين الذين لو وجدوا فى مثل ظروفهم لاجتهدوا ولأجازوا كثيراً مما يحرمه القوم لجهلهم وتشددهم فى الدين والشعور بالحرج فى غير ما يوجب الشعور به .

ولقد ضاق الأفغانى صدراً بهؤلاء الذين يخفون جهلهم وقصورهم تحت ستار التمسك بما قال السابقون من الأئمة ، وهربا من تقرير الأحكام الشرعية طبقاً لما تقتضيه حاجات الزمان وظروفه ، فقال أيجهل هؤلاء الأدعياء أن السابقين الأولين قد اجتهدوا فى حدود ما كانت تمليه عليهم بيئتهم الاجتماعية والتاريخية ، ولم يقفوا هم أنفسهم عند أقوال من تقدمهم.[1] ولم يتوقعوا أن من سيأتى بعدهم لن يسلك مسلكهم من الاعتماد على النظر والبحث مع اطلاق الحرية للعقل . ولو استطاعوا أن يجتهدوا لكل ماسيجد فى العصور التى تليهم لفعلوا . فما الذى يحول إذن دون المتأخرين أن يجتهدوا بدورهم ، وأن يتشبهوا بهؤلاء الذين يحتجون بأقوالهم ؟ ولماذا يؤثرون الجمود والتقليد ثم يزعمون أنهم قوامون على الناس فى أمور دينهم ودنياهم ؟ لقد ترك الأولون للآخرين شيئاً كثيراً . وليست الأحكام التفصيلية التى اهتدوا إليها إلا شيئاً يسيراً ، لأنها كانت رهنا بزمانهم . والأحكام تتبدل وتتطور بتبدل الأزمان والعصور . ومن ثم فلا سبيل إلى الإصلاح

---

(١) انظر أيضاً ص ١٢٢ .

إلا إذا فتح باب الاجتهاد ، وإلا إذا دالت دولة المقلدين العاجزين ، التى رأى محمد عبده قبلنا ، أنها بسطت سلطانها على العالم الإسلامى منذ نحو ألف سنة ، بحيث لا يمكن القول بأنها دولة عارضة توشك أن تزول . فمنذ ذلك الحين يعلم المتأخرون مسائل الخلاف حق المعرفة ولكنهم لا يريدون أن يقطعوا برأى فيها ما دامت الكتب التى فى أيديهم لم تشر إلى الرأى الذى يجول بخاطرهم . فهم يتحرجون كل الحرج من أن يقولوا شيئاً لم يسبقهم إليه أحد .

وفى غمرة هذا الخلاف تضل العامة ولا تهتدى إلى الحق فى أمور دينها ودنياها . وقد أشار أبو العلاء إلى هذا البلاء الذى وقع فيه المسلمون بسبب جمود الفقهاء واختلافهم ، فقال يتحدث عن أتباع الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما :

أجاز الشافعى فِعال شىء ... وقال أبو حنيفة لا يجوز
فضّل الشيبُ والشبان منّا ... وما اهتدت الفتاة ولا العجوز
لقد نزل الفقيه بدار قوم ... فكان لأمره فيهم نجوز[1]
ولم آمن على الفقهاء حبساً ... إذا ما قيل للأمناء جوزوا

وحرص هؤلاء على إبقاء الخلاف بينهم ، وعلى احتكار العلم يريدون به عرضاً من الحياة الدنيا ، كما وصفهم ابن رشد فى عصره ، فقال : « ومعظم الفقهاء هكذا نجدهم » . ذلك أن الفقهاء يجدون فى هذا الخلاف والصراع سبيلا إلى استمرارهم فى البقاء ، وإلى كسب العيش ، وكل ما يشغلهم هو أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، وأن يظل التحالف بينهم وبين الحاكم الزمنى . لذلك قلما تجد الفقهاء يشغلون أنفسهم بالبحث عن أسباب تدهور المسلمين

(١) قضاء حاجة له .

وانحطاطهم ، أو يجهدون الفكر فى تلمس الوسائل للنهوض بالأمة وإعلاء شأنها ؛ بل يعتقدون، فى أشد العصور ظلاما، أن الأمة بخير ، وأن كل مايحل بها من البلاء أقل مما يمكن أن يحل بها لو أرادت إصلاح أمرها عن طريق غير طريقهم ، مع أن الإصلاح لا يعنيهم فى قليل أو كثير ؛ إذ يرون أن الأمور تسير دائماً على النحو الذى ينبغى أن تسير عليه ما دام الناس يتقبلون صابرين كلا من الاستبداد السياسى والروحى . فهم متفائلون دائماً مهما اشتدت الخطوب ، ويرون أنه ليس فى الإمكان أن يكون أبدع مما كان . فهم محافظون بحكم وضعهم فى الهيئة الاجتماعية ؛ بل بحسب طبيعة مهنتهم . وأهم سمات المحافظة الجمود ، أى محاربة التجديد والإصلاح . فإذا أنت رأيت فى عصر ما أن التحالف بين أهل التقليد من رجال الدين وبين حكومة إسلامية بدأت تنفك أواصره وتنحل روابطه فلك أن تطمئن إلى أن الإصلاح يسير بخطا حثيثة، وأنه يسير فى الاتجاه الصحيح .